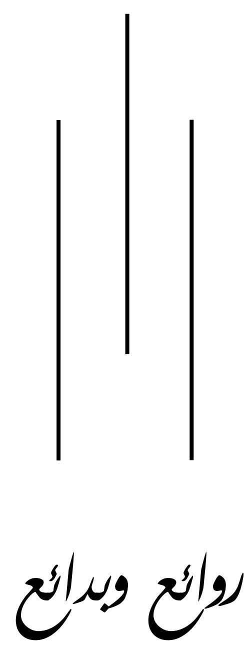


روائع وبدائع

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م



هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ ـ ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E ـ mail: almabarrh@gmail. com

www.almabarrah.net



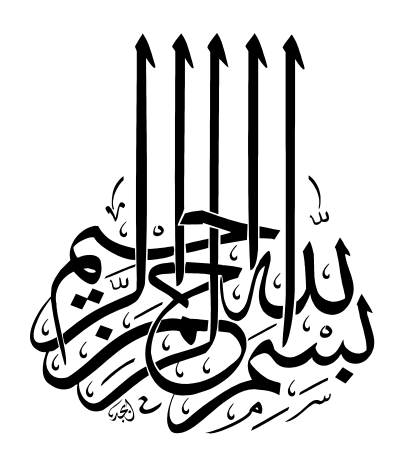
سلسلة الآل والأصحاب في الأدب العربي (٣)

روائع وبدائع

روائع من بيان النبوة
وبدائع من بيان الآل والأصحاب

د . محمد حسان الطيان

إشراف ومراجعة
مركز البحوث والدراسات بمبرة الآل والأصحاب



إنْ كانَ في الناسِ سبَّاقونَ بعدَهمُ فــكلُّ ســبقٍ لأدنى ســبقِهِمْ تَبـعُ
أكرِمْ بقــومٍ رســولُ اللهِ شــيعتُهُمْ إذا تفرَّقـــتِ الأهـــواءُ والشِّـــيَعُ

✍ حسان بن ثابت

الفِهرس

الموضوع	الصفحة



مقدمة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمدا وشكرا لمن تنزه عن الأشباه والأمثال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وتفرد بالخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ووحدانية الذات والصفات والأفعال.

وصلاة وسلاماً على أفضل الخلق على الإطلاق، سيدنا محمد المبعوث بشيرا ونذيرا في عامة الآفاق، صلى الله عليه وعلى جميع آله والأصحاب، أولي العلم والحكمة وفصل الخطاب.

وبعد فإن من أكبر نعم الله على الإنسان فصاحة لسانه بالبيان والتبيان، وإن من أحسن الحلى التي يتحلى بها المرء حجةً دامغة أو حكمة بالغة أو مثلاً شريفاً أو قولاً لطيفاً ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ومن هنا رأينا أن العناية بشيء من بلاغة النبي صلوات ربي وسلامه عليه وبلاغة آل بيته الشرفاء وأحبابه من أصحابه الفضلاء يصب في اهتمامات وأهداف مبرة الآل والأصحاب.

ومن ثم رأينا إسناد هذا الأمر لابن بجدتها، وباري قوسها الأستاذ الفاضل د. محمد حسان الطيان العضو المراسل بمجمع اللغة العربية بدمشق،

ومنسق مقررات اللغة العربية بالجامعة العربية المفتوحة فاستجاب مشكوراً، فخطت يراعه الكريمة هذا الكتاب الموسوم بـ«**رواع وبدائع ــ روائع من بيان النبوة وبدائع من بيان الآل والأصحاب**».

وها نحن نضع بين يديك أيها القارئ الكريم هذا السفر عسى الله أن ينفع به ويبارك عليه.

اللهم طهر قلوبنا من ضروب الفساد، وحبب إلى أنفسنا طرائق الرشاد، وكن لنا دليلاً، وبنجاتنا كفيلاً، بمنِّك وجودك الذين ما خلا منهما شيء من خلقك... آمـيــن.

✍ **علي بن حمد التميمي**

نائب رئيس مركز البحوث والدراسات

بمبرة الآل والأصحاب

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي منَّ علينا بنعمة البيان، وجعلها على رأس النعم التي أنعم بها على خلقه، فهو جل في علاه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[1].

والصلاة والسلام على من دان له البيان، فكان أفصح من نطق به، ولان له الكلام فامتلك جوامعه. وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، منارات الهدى وأكنان النور.

وبعد،،،

فمن يعش في دنيا البيان يعش في دنيا لا نظير لها، إنها نعمى البيان بسحره وأثره، وسرِّه وصوره، وفصاحته وبلاغته، ونداوته وطلاوته...

فكيف إذا كان هذا البيان نابعا من مصدره، ومستقى من مورده ومنبعه؟!

كيف إذا كان صاحبه أفصح من نطق به.. عليه أزكى الصلاة والتسليم؟!.

وكيف إذا كان معه نخبة من خيرة آله وأصحابه الذين اهتدوا بهديه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، فكانوا أئمة البلاغة والفصاحة والبيان، فضلا عما تضلعوا منه من علوم، ونهضوا له من شؤون؟!

(١) سورة الرحمن الآية (١ ـ ٤).



إن العيش في ظلال كلامهم هو ضرب من النعيم لا يعرفه إلا من ذاقه، ولا يصفه إلا من عرفه.

وهذه دعوة إلى مأدبتهم نتذوق منها ما لذَّ وطاب، ونتفيأ من ظلالها ما عساه يكون لنا واحةً في بيداء مقفرة، ونعب من خيراتها ما نرجو أن يكون لنا زادًا في سنوات قحط مجدبة.

إنها مختارات من خطبهم وأحاديثهم وأقوالهم توخيت فيها إبراز جانب الفصاحة والبلاغة ليضمها هذا الكتاب الذي يمكن أن يكون نواة لموسوعة تشتمل على كل ما جاء في هذا الباب.

هذا وقد قسمت الكتاب ثلاثة أقسام، استقل الأول بالبيان النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وانفرد الثاني ببيان الآل الأطهار عليهم السلام، واشتمل الثالث على بيان الأصحاب الأخيار عليهم الرضوان.

وكان من منهجي في اختيار النصوص التعويل ما أمكن على الأصح سندا ورواية، لا سيما في القسم الأول أعني البيان النبوي، أما القسمان الآخران فقد تساهلت فيهما لأن الإسناد ليس شرطا في نقلهما، إذ لا يترتب على نصوصهما أحكام فقهية أو شرعية، بل الغاية هي الوقوف على جمال هذه النصوص وبلاغتها وفصاحتها، فضلا عما تشتمل عليه من عظة بالغة، أو حكمة نافعة، أو عبرة مؤثرة.

❊ ❊ ❊

قال الخطيب البغدادي في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع):

«وأما أخبار الصالحين، وحكايات الزهاد والمتعبدين، ومواعظ البلغاء،

وحكم الأدباء، فالأسانيد زينة لها، وليست شرطا في تأديتها». ونقل عن يوسف الرازي قوله: «إسناد الحكمة وجودها»[1].

* * *

وكان من همي في الاختيار الوقوف على أبلغ الكلام وأحلاه وأسهله وأصفاه، وأقربه إلى الفهم والتذوق، وقرأت من أجل ذلك عشرات الخطب ومئات الأقوال والآثار لأقتصر على نماذج منها تكون مَنْبَهَةً على ما وراءها.

وقد سعيت إلى تقسيم النصوص المختارة إلى فقرات تجلو ما تشتمل عليه من فِكَر، بحيث يكون لكل فكرة فِقْرة، وضبطت ما يحتاج منها إلى ضبط، كما شرحت ما غمض من ألفاظها.

على أني توسعت في شرح بعض النصوص ذات الخصوصية، كحديث «ألا أخبركم بأحبكم إليَّ...» الذي رجعت في شرحه إلى كتاب الكامل للمبرد، وحديث أم زرع الذي استعنت في شرحه بشرح الإمام النووي على صحيح مسلم، ليطلع القارئ على نماذج من شروح الأئمة الكبار على النصوص.

ولم أخل بعض النصوص المختارة من تمهيد أو تعليق يجلو مواطن الجمال فيها، إذ القصد كما ألمعت إبراز ما تشتمل عليه هذه النصوص من بلاغة وفصاحة وبدائع وروائع.

* * *

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/٣١٦ ـ ٣٢٠.

ويطيب لي في الختام التوجه بالشكر إلى القائمين على مبرة الآل والأصحاب وأخص منهم فضيلة الشيخ علي التميمي، لما لقيت منه من متابعة طيبة، وملاحظات نافعة، سائلاً المولى الجليل أن يجزي الجميع خير الجزاء وأوفاه، وأن يعينهم على ما ينهضون له من عمل ويبذلونه من جهد في سبيل جمع الأمة، وتوحيد الصف، وإزالة الشبهة، ونشر المحبة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الكويت ٤ شعبان ١٤٣٢هـ
٢٠١١/٧/٥

✍ **د. محمد حسان الطيان**
hassantayyan@yahoo. com



تمهيد (١)

للبيان أثر لا يدانيه أثر، إنه سحر عجيب، يرفع ويخفض، يجرح ويأسو، يصنع الأعاجيب.

ألم يأتك نبأ القوم الذين كانوا يُعَيَّرون بلقب غلب عليهم وعرفوا به، وهو (أنف الناقة) فجعل منه الحطيئة شرفا لا يعدله شرف، حين قال في حقهم:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمُ ... ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

على حين نزل جرير بآخرين إلى درْك ما دونه درْك حين قال في حق شاعرهم:

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ ... فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

إنه البيان الذي جعله المولى عز وجل على رأس آلائه التي امتن بها على خلقه من الإنس والجن، وقرنه بنعمة الخلق حيث قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ (٢).

وحسبك به من نعمة توصل إلى نعم كثيرة، وهل يدرك القرآن إلا بالبيان؟ أو يوصل إلى الإيمان إلا بالبيان؟ أو يحمد الرحمن إلا بالبيان؟

(١) هذا التمهيد مقتبس من كتاب لي بعنوان ملامح من بيان العربية وجمالها.

(٢) سورة الرحمن الآية (١ ـ ٤).

بل هل يتواصل الإنسان إلا بالبيان؟ أو يعبر عن أرق مشاعره وأحاسيسه إلا بالبيان؟.

إن البيان إذا ما رضي أرضى الناس جميعا وداخَلَ الضمائر والقلوب:

إذا مـا صـافحَ الأسـماعَ يومـاً   تبسَّـمَتِ الضَّـمائرُ والقلـوبُ

وإذا ما غضب أو سخط أسخط كل من يسمعه وخلّف جرحا لا يندمل:

جراحـات السـنان لهـا التئـام   ولا يلتـام مـا جـرح اللسـان

إنه الكلام الذي يمتزج بأجزاء النفس لطافةً.. وبالهواء رقةً.. وبالماء عذوبةً.. إذا ما سمعته فكأن السحر يدِبّ في جسدك.

ولا غرو فقد وصفه بذلك أفصح من نطق به، وهو رسولنا المعظم صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «إن من البيان لسحرا».

ثم أخذ ذلك ابن الرومي فأضفى عليه مسحة من شاعريته ليقول:

فـي زخـرف القـول تـزيين لباطلـه   والحـق قـد يعتريـه سـوء تعبيـر

تقـول هـذا مجـاج النحـل تمدحـه   وإن ذممـت تقـل قـيء الزنـابير

مدحاً وذماً ومـا جـاوزت وصـفهما   حسن البيـان يـري الظلمـاء كـالنور

وقد نزل القرآن على أمة أمية ما تحسن شيئا إحسانها للبيان! وما تقدر شيئا تقديرها للكلمة الفصيحة والشعر البليغ والقول المؤثر! حتى لقد وصفت بأنها أمة سجدت للبيان قبل أن تسجد للأوثان، وقد سمعنا بمن استهزأ منهم بالأوثان، لكنا لم نسمع أبدا أن أحدا منهم استهزأ بالبيان.

وكان من تمام عنايتها بهذا البيان أن أقامت للشعر دولة ناهيك بها من

دولة! وعقدت له أسواقا ومهرجانات أصبحت ملء السمع والبصر، وكرمت مبدعيه ورفعت مكانتهم، حتى غدت القبائل تفتخر بمبلغ ما عندها من الشعراء والخطباء.

من أجل هذا أُمِر رسولنا الكريم ﷺ أن يهزّ قلوبهم بقول بليغ لا عهد لهم به، فقال عز من قائل: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[1]. فلما سمعوا هذا القول طربت آذانهم، وانقادت له قلوبهم، حتى إن كبراءهم وسادتهم خافوا على أنفسهم وعلى غلمانهم من تأثير القرآن ووقعه، فنهوا عن سماعه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2].

بل لقد قال بعضهم في وصفه كلمات سطرها التاريخ بأحرف من نور، من مثل قول الوليد بن المغيرة: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر». إثر سماعه الرسول ﷺ يتلو قوله جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

ووصل الأمر بلبيد ـ وهو أحد أصحاب المعلقات ـ أن كف عن قول الشعر بعد أن كان من فحول الشعراء ومن أصحاب المعلقات، وفي هذا يقول شيخنا العلامة محمد صالح الفرفور رحمه الله:

(١) سورة النساء الآية (٦٣).

(٢) سورة فصلت الآية (٢٦).

(٣) سورة النحل الآية (٩٠).

أتيتَهُم بكتاب الله معجزة   أخجَلتَ قُسًّا وسحبانا وحسانا
ألقى لبيدُ عصاه حين أعجزه   قولٌ بليغ بآيات لِعمرانا
ولم تَجُد بَعدُ في شعر قريحَتُهُ   شتَّانَ شعر وآيُ الله شتّانا
ذاكَ البيانُ الذي تبقى عجائبه   رغم الأنوفِ وان شانوه بُهتانا





أولاً: البيان النبوي

لقد بلغ رسول الله ﷺ الغاية القصوى في الفصاحة والبيان، فما بعد فصاحة القرآن أفصح من كلامه... وما بعد بيان السماء أعلى من بيانه...

ففي كلامه من البلاغة والإيجاز ما يدنو من الإعجاز....

وفي بيانه من الدلائل والمعاني ما لا يعبر عنه بطوال الألفاظ والمباني.

ولقد سبقَ ولم يُسبَ ... ولحق بأسمى بيان ولم يُلحَق

وما أحسب ناشئا مثلي في عالم الفصاحة والبيان بقادر على أن يفيه حقه أو معشاره، لذا سأورد كلام أهل البيان فيه مبتدئا بأمير البيان أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي يقول في نعت كلامه ﷺ:

«وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف»، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

فكيف وقد عابَ التشديق، وجانب أصحاب التقعيب[2]، واستعمل المبسوطَ في موضع البسط، والمقصورَ في موضع القصر، وهَجَر الغريبَ الوحشيَّ، ورغِبَ عن الهجين السُّوقيّ، فلم ينطِقْ إلا عن مِيراثِ حكمَةٍ، ولم

(١) سورة ص الآية (٨٦).

(٢) التقعيب كالتقعير، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه.

يتكلَّم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق.

وهو الكلامُ الذي ألقَى الله عليه المحبّةَ، وغشَّاهُ بالقَبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبَيْن حُسنِ الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقِلّةِ حاجة السامع إلى معاوَدته.

لم تسقط له كلمة، ولا زَلّت به قَدَم، ولا بارَتْ له حجَّة، ولم يَقُم له خَصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذُّ الخُطَبَ الطِّوال بالكلِم القِصار.

ولا يَلتمِس إسكاتَ الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصِّدق ولا يطلب الفَلْج[١] إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة[٢]، ولا يستعمل الموارَبة، ولا يهمِز ولا يَلْمِز[٣]، ولا يُبْطِئُ ولا يَعْجَل، ولا يُسْهِب ولا يَحْصَر[٤].

ثم لم يَسْمع الناسُ بكلامٍ قَطّ أعمَّ نفعاً، ولا أقصَدَ لفظاً، ولا أعدلَ وزناً، ولا أجملَ مذهباً، ولا أكرَم مطلباً، ولا أحسنَ موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوَى، من كلامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[٥].

كيف لا وهو مشرع الفصاحة وموردُها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل وخطيب، وبكلامه استعان كل واعظ وبليغ؛ لأن كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عليه

(١) الفوز والظفر.

(٢) الخِلابة: المخادعة.

(٣) الهمز: العيب في الغيبة، واللمز العيب في الحضرة.

(٤) من الحصْر وهو العِي في الكلام.

(٥) البيان والتبيين ٢/١٦ ـ ١٨.

مسحة من العلم الإلهي: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1].

۞ وقال يونس بن حبيب:

«ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[2].

۞ وقال مصطفى صادق الرافعي:

«وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض.. أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء»[3].

وفيما يأتي قبس من بيانه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

سنعمد فيما يأتي إلى تخيّر نماذج من بيان النبوة، موزعة على أربعة أنماط، هي:

جوامع الكلم، وأحاديث مختارة، وخطب مختلفة، ومشاهد ومواقف.



(١) سورة النجم الآية (٣ ـ ٤).

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨.

(٣) تاريخ آداب العرب ٢/٢٧٩.





١ ـ من جوامع الكلم

وهي أحاديث نبوية قليلة الألفاظ كثيرة المعاني، يتجلى فيها الإيجاز في أروع صوره، وقد أولاها علماء البلاغة والبيان الكثير من العناية، وفخر بها رسولنا الكريم ﷺ في نص الحديث المشهور عن «**عن أبي هريرة** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال: فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ أعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ، ونُصِرتُ بالرُّعبِ وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجُعِلَت لي الأرضُ طهوراً ومسجداً، وأُرسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّة، وخُتِمَ بي النبيون**»[١].

قال ابن الأثير معلقاً على هذا الحديث: وما سمع بأن رسول الله ﷺ افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب، ولا بالطب ولا بغير ذلك، كما قال: «أوتيت جوامع الكلام»[٢].

۞ فمن ذلك ألفاظ له عليه الصلاة والسلام لم تسبقه العرب إليها كقوله:

❊ «**رفقاً بالقوارير**» قاله لأنجشة، وكان يحدو بالنّساء[٣].

وفي هذا الحديث ما يسميه علماء البلاغة استعارة تصريحية، حيث شبهت النساء بالقوارير لرقتهن والحذر من تعرضهن للكسر، وحذف المشبه

---

(١) رواه مسلم (٥٢٣).

(٢) المثل السائر (٤/٥).

(٣) متفق عليه.

وهو النساء وصرح بالمشبه به وهي القوارير. والمراد أن يبطئ أنجشة من إيقاع حدائه لتبطئ الإبل من سرعتها من أجل النساء اللاتي كانت على ظهورها، إذ هي لا تحتمل أن يسرع بها. وقد ذهب الحديث مثلا لكل نساء الدنيا في لطف المعاملة ورفق الحديث.

❊ **«مثلُ المؤمنِ كالنحلةِ، لا تأكلُ إلا طيّباً، ولا تضعُ إلا طيبًّا»**(١).

وهذا تشبيه طريف، يدعى بالتشبيه التمثيلي، إذ شبه المؤمن في حالَيْ أخذه وعطائه.. تعلمه وتعليمه.. بيعه وشرائه.... إلخ بالنحلة في حالَيْ رشفها لرحيق الأزهار وهي أجمل ما في الطبيعة وأزكى ما في الوجود، وإخراجها أطيب شراب للناس وهو العسل فيه شفاء للناس.

❊ **«منهومانِ لا يشبعانِ، طالب العلمِ، وطالب المالِ»**(٢).

ما أجمله من تصوير، يجلو حقيقة طالب العلم، كما يجلو حقيقة طالب المال، فكلاهما منهوم، أي مقبل على حاجته إقبال الجائع النهم على طعامه، يمتلئ بطنه ولا تنتهي نفسه. وجاء في اللسان: والنَّهامة إفراط الشهوة في الطعام وأن لا تمتلئ عين الآكل ولا تشبع. ورجل منهوم بكذا أي مولع به.

❊ **«الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ»**(٣).

فيه إيجاز سريع وجناس بديع. أما الإيجاز فيربط بين الظلم في الدنيا ومآله في الآخرة، إنه ويل وثبور وعذاب وعقاب وذل وهوان، وكل ذلك

---

(١) أخرجه ابن حبان (رقم ٣٠) و ابن عساكر (٢/٤٣/١) بسند حسن.
(٢) أخرجه الحكم في المستدرك (٣١٢) عن أنس والبزار (٤٨٨٠) عن ابن عباس.
(٣) أخرجه مسلم (١٨/٨) و البخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٣).

مشمول في كلمة ظلمات، إذ لك أن تتصور ما فيها من سوء المنقلب وبؤس المصير. وأما الجناس ـ وهومن النوع الناقص ـ فهو بين كلمتي الظلم والظلمات، وفيه مشاكلة عجيبة تربط بين العمل وعاقبته.

* **«المسلمُ منْ سلمَ الناسُ من لسانِهِ ويدِهِ»**(١).

وما أروع تعميم السلامة على الناس جميعا وليس على المسلمين فحسب، إذ رسالة المسلم ليست مقصورة على إخوانه من المسلمين بل هو الرحمة المهداة لكل العالمين طيبَ معاملةٍ وحسنَ خلقٍ وجمالَ عشرةٍ.

* **«لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»**(٢).

لاحظ هذا النفي الاستغراقي الذي عبرت عنه لا النافية للجنس، إنها تنفي الإيمان عمن فقد الأمانة، وتنفي الدين عمن فقد العهد أو أخلَّ به، والعهد كل ما عوهد اللهُ عليه، وكل ما بين العباد من المواثيق، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾(٣).

* **«دعْ ما يَريبُك(٤) إلى ما لا يَريبُكَ»**(٥).

كلمة جامعة مانعة، يوجه فيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وجوب ترك كل ما يشك المرء فيه، ووجوب الأخذ بما لا يشك المرء فيه، وقد عبر عن ذلك خير

(١) الترمذي (٢٧٧٥) وصحيح ابن ماجه (٤١١٦).
(٢) رواه أحمد (٨٠٥) وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط والبزار (٧١٩٦) والطبراني في الأوسط (٢٦٠٦) وابن حبان في صحيحه (١٩٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٣) سورة الإسراء الآية (٣٤).
(٤) الريب: الشَّكُّ وقيل هو الشِّك مع التُّهمة.
(٥) رواه الترمذي (٢٥١٨) والنسائي (٥٧١١) عن الحسن بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

تعبير حرف الجر إلى، إذ جاء معبرا عن تجاوز الريبة إلى عدم الريبة، وكأنه القنطرة بين الشك واليقين، وبين التهمة والبراءة، وبين الترك والأخذ، وبين الشر والخير، وبين الريبة والطمأنينة. وثمة رواية أخرى للحديث تبين العلة من هذا الأمر، وهي قوله: فإن الشر ريبة والخير طمأنينة.

❋ **«ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحقٍّ إذا علمه»**(١).

حثٌّ بليغ على وجوب الجهر بكلمة الحق، مهما كانت الأحوال، ودون أن يأخذ القائلَ في ذلك لومةُ لائم.

❋ **«من حسنِ إسلامِ المرء تركُهُ ما لا يعنيهِ»**(٢).

دعوة إلى خلق نبيل من أخلاق الإسلام بأرشق عبارة وأخف إشارة، أما الخلق فهو عدم الفضول وحشر النفس في كل أمر لا يخصها أو يعنيها.

❁ ومن ذلك ما جرى مجرى المثل وروته كتب الأمثال:

كمجمع الأمثال للميداني الذي اشتمل على أكثر من ستة آلاف مثل من أمثال العرب، وكتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبي، والإيجاز والإعجاز للثعالبي أيضا.

قال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية. فهو نهاية البلاغة.

والأمثال عصارة التجارب، ومجمع الحكم، وخلاصة الخبرات. وهي

---

(١) رواه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجة (٤٠٠٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجة (٣٩٧٦)، وأحمد (١٧٣٧).



إلى هذا اختصار للفصاحة في أحلى تعبير، وتمثيل للبلاغة في أجمل صورة، وقديمًا عُرِّفت البلاغة بأنها الإيجاز، وما ثَمَّةَ أوجزُ من مثل.

وهي في كثير من نماذجها تمثل القيم العربية السامية، ومكارم الأخلاق الراقية، التي جاء رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متمما لها، وآمرا بها، ومحافظا عليها.

وقد روت كتب الأدب والبلاغة والأمثال كثيرا من الأمثال النبوية، أعني المنسوبة لنبينا عليه أفضل الصلاة والسلام. وتخيرتُ نماذج من هذه الأمثال، على أني لم أثبت هنا إلا ما صحت روايته وفق ما جاء في دواوين السنة، موثقا ذلك من كتب السنن.

فمن ذلك ما رواه الثعالبي في كتاب التمثيل والمحاضرة تحت عنوان:

«ومن ذلك ما أجراه في عُرض كلماته غير قاصد به ضرب مثل وإرسال فقرة فتمثل الناس به، كقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ»[١]:

* **«حَوالَينا ولا عَلَينا»**[٢].

وهي كلمة ذهبت مثلا من حديث الاستسقاء، وسأورد نصه كما جاء في صحيح البخاري ليقف القارئ على سياقها وسباقها:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ قَالَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ أَخْبَرَنَا

(١) التمثيل والمحاضرة ٦/١.

(٢) متفق عليه من حديث أنس بن مالك في حديث الاستسقاء وقد أورده البخاري في غيرما موضع من صحيحه.

الْأَوْزَاعِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: أَصَابَتْ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكَ الْمَالُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا أَنْ يَسْقِيَنَا.

قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَمَا فِي السَّمَاءِ قَزَعَةٌ[1] قَالَ: فَثَارَ سَحَابٌ أَمْثَالُ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ.

قَالَ: فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَفِي الْغَدِ، وَمِنْ بَعْدِ الْغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ إِلَى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى.

فَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ رَجُلٌ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ، وَغَرِقَ الْمَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا.

فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللهُمَّ **حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا**.

قَالَ: فَمَا جَعَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْ السَّمَاءِ إِلَّا تَفَرَّجَتْ، حَتَّى صَارَتْ الْمَدِينَةُ فِي مِثْلِ الْجَوْبَةِ[2]، حَتَّى سَالَ الْوَادِي وَادِي قَنَاةَ شَهْرًا. قَالَ فَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالْجَوْدِ[3].

---

(١) أي قطعة من الغيم.

(٢) الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، أي حتى صار الغيم والسحاب محيطا بآفاق المدينة. اللسان (جوب)

(٣) صحيح البخاري ٤/١٤٠، رقم ٩٧٥.

❋ «سلمانُ منّا أهلَ البيتِ»[١].

كلمة وطدت أسس المساواة في الإسلام، ونفت عنه كل عنصرية أو عرقية أو دعوى جاهلية. وسلمان هو الصحابي الجليل سلمان الفارسي، وقد جعله رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الكلمة من آل البيت الأطهار في المنزلة والمكانة، فأي شرف أرفع من هذا الشرف.

وقد صاغ شيخنا الشيخ صالح الفرفور هذه الكلمة في شعر جميل جاء فيه:

قالت قريشٌ أيا للعرب تسويةً ... هل يستوي عَجَمٌ مع نسل قحطانا
نحِّ الصعاليكَ واسترشد غَطارِفنا ... يأتِكَ كلُّ كريمِ القوم مِذْعانا
واجعل لنا ميزةً عن أهل صُفّتِكم ... وهل يُسَوَّي طريرُ القومِ عَريانا
أجبتُ تبّت يدا عمّي أبي لهب ... منّا بلالُ وزد في الآل سلمانا
إنا عبيدٌ وربُ العرش بارئُنَا ... و إنَّ أكرمَنَا لله أتقانا

❋ «سَبَقَكَ بها عُكَّاشَة»[٢].

وهي أيضا من سياق حديث رواه البخاري، وهذا نصه:

حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ مَيْسَرَةَ حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ حَدَّثَنَا حُصَيْنٌ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ فَذَكَرْتُهُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ:

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٦٥٣٩)، والطبراني في المعجم الكبير (٦٠٤٠)

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ.

قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ. قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ.

فَأَفَاضَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ؟ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ؟ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ.

فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**[١].

❊ **«منىً مُناخُ مَنْ سَبَقَ»**[٢].

وفيما يأتي نص الحديث كما جاء في صحيح الترمذي:

حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ عِيسَى وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبَانَ قَالَا حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُهَاجِرٍ عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ عَنْ أُمِّهِ مُسَيْكَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

---

(١) صحيح البخاري ٤٧٣/١٧ رقم ٥٢٧٠.

(٢) رواه الترمذي (٨٨١)، وابن ماجة (٣٠٠٦)، وأحمد (٢٥٧١٨).

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَبْنِي لَكَ بَيْتًا يُظِلُّكَ بِمِنًى.

قَالَ: لَا ، مِنًى مُنَاخُ مَنْ سَبَقَ.

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[(١)].

* «أبدأ بما بدأ الله»[(٢)].

وهي كلمة من حديث طويل رواه الإمام مسلم في بَاب حَجَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قالها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين بدا السعي من الصفا بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

* «زُرْ غبًّا تزدْد حبًّا»[(٤)].

(الغِبُّ مِن أوْرَاد الإبِل: أنْ تَرِدَ الماء يَوماً وتَدَعَه يوما ثم تَعُودَ، فَنقَله إلى الزِّيارة وإنْ جاء بعد أيام، والغب فعل الأمر والقيام به حينا بعد حين).

۞ ومن ذلك ما جاء في مجمع الأمثال[(٥)]:

* الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ[(٦)].

---

(١) سنن الترمذي (٨٨١).

(٢) رواه مسلم (١٢١٨)، وابن حبان (٣٩٤٣) من حديث جابر.

(٣) سورة البقرة الآية (١٥٨).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٣٥)، والشهاب القضاعي في مسنده (٦٢٩).

(٥) مجمع الأمثال ١/٣٩٠. وقد تخيرت مما ورد فيه ما صحت روايته، مثبتا عبارة الحديث كما وردت في كتب السنن.

(٦) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجة (٤٢٦٠)، وأحمد (١٧١٢٣).

* المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً[١].

* المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمُه ولا يخذلُهُ[٢].

* إنَّ اللهَ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّهِ[٣].

* ربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ[٤].

* «مَنْ غشَّنا فليسَ منّا»[٥].

وفيما يأتي بعض هذه الأمثال النبوية مشفوعا بشرحه:

أ ـ «مَطْلُ الغنيِّ ظلمٌ»[٦].

جاء في فتح الباري:

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ مِنْ الظُّلْم، وَأُطْلِقَ ذَلِكَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التَّنْفِير عَنْ الْمَطْل، وَقَدْ رَوَاهُ الْجَوْزَقِيُّ مِنْ طَرِيق هَمَّام عَنْ أَبِي هُرَيْرَة بِلَفْظِ «إِنَّ مِنْ الظُّلْم مَطْل الْغَنِيّ» وَهُوَ يُفَسِّر الَّذِي قَبْله، وَأَصْل الْمَطْل الْمَدّ، قَالَ اِبْن فَارِس: مَطَلْت الْحَدِيدَة أَمْطُلهَا مَطْلًا إِذَا مَدَدْتها لِتَطُولَ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيّ: الْمَطْل الْمُدَافَعَة، وَالْمُرَاد هُنَا تَأْخِير مَا اُسْتُحِقَّ أَدَاؤُهُ بِغَيْرِ عُذْر.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٥٣٥٧).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه البخاري ١/١٧٤١، والنسائي (٤٠٧٨) في الكبرى.

(٥) رواه مسلم (١٠١)، وابن ماجة (٢٢٢٥).

(٦) متفق عليه.

ب ـ «نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصحةُ والفراغُ»[١].

جاء في فتح الباري:

وَالْغَبَن بِالسُّكُونِ وَبِالتَّحْرِيكِ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيّ: هُوَ فِي الْبَيْع بِالسُّكُونِ وَفِي الرَّأْي بِالتَّحْرِيكِ، وَعَلَى هَذَا فَيَصِحّ كُلّ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْخَبَر فَإِنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلهُمَا فِيمَا يَنْبَغِي فَقَدْ غَبَنَ لِكَوْنِهِ بَاعَهُمَا بِبَخْسٍ وَلَمْ يُحْمَد رَأْيه فِي ذَلِكَ. قَالَ اِبْن بَطَّال: مَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ الْمَرْء لَا يَكُون فَارِغًا حَتَّى يَكُون مَكْفِيًّا صَحِيح الْبَدَن فَمَنْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ فَلْيَحْرِصْ عَلَى أَنْ لَا يَغْبِن بِأَنْ يَتْرُك شُكْر الله عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمِنْ شُكْره اِمْتِثَال أَوَامِره وَاجْتِنَاب نَوَاهِيه، فَمَنْ فَرَّطَ فِي ذَلِكَ فَهُوَ الْمَغْبُون.

وَقَالَ اِبْن الْجَوْزِيّ: قَدْ يَكُون الْإِنْسَان صَحِيحًا وَلَا يَكُون مُتَفَرِّغًا لِشُغْلِهِ بِالْمَعَاشِ، وَقَدْ يَكُون مُسْتَغْنِيًا وَلَا يَكُون صَحِيحًا، فَإِذَا اِجْتَمَعَا فَغَلَبَ عَلَيْهِ الْكَسَل عَنْ الطَّاعَة فَهُوَ الْمَغْبُون، وَتَمَام ذَلِكَ أَنَّ الدُّنْيَا مَزْرَعَة الْآخِرَة، وَفِيهَا التِّجَارَة الَّتِي يَظْهَر رِبْحهَا فِي الْآخِرَة، فَمَنْ اِسْتَعْمَلَ فَرَاغه وَصِحَّته فِي طَاعَة الله فَهُوَ الْمَغْبُوط، وَمَنْ اِسْتَعْمَلَهُمَا فِي مَعْصِيَة الله فَهُوَ الْمَغْبُون، لِأَنَّ الْفَرَاغ يَعْقُبهُ الشُّغْل وَالصِّحَّة يَعْقُبهَا السَّقَم، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْهَرَم كَمَا قِيلَ: يَسُرّ الْفَتَى طُول السَّلَامَة وَالْبَقَا فَكَيْف تَرَى طُول السَّلَامَة يَفْعَل يَرُدّ الْفَتَى بَعْد اِعْتِدَال وَصِحَّة يَنُوء إِذَا رَامَ الْقِيَام وَيُحْمَل.

---

(١) رواه البخاري ٢٠ (٦٤١٢)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجة (٤١٧٠).

ج ـ «إنّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى»[١].

(يضرب لمن حمّل على دابته فوق طاقتها، فيبقى منقطعاً به).

جاء في مجمع الأمثال:

المنبتُّ المنقطع عن أصحابه في السفر. والظهر الدابة. قاله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لرجل اجتهد في العبادة حتى هجمت عيناه أي غارتا فلما رآه قال له: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إن المنبت أي الذي يجد في سيره حتى ينبَتَّ أخيراً سماه بما تؤول إليه عاقبته كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

يضرب لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه.



(١) أخرجه البيهقي (٤٧٤٣)، وفي الشعب (٣٨٨٦).





٢ ـ أحاديث جامعة

أعني أنها أحاديث جامعة لكثير من المكارم والمحامد والشمائل والصفات، بأوجز عبارة، وأبلغ إشارة، وأعلى بيان، وأسمى كلام. وما اخترته منها لا يعدو أن يكون غيضا من فيض، وقُلا من كُثر، امتلأت به كتب الأثر، فهو منْبَهَةٌ على ما وراءه.

أ ـ الوصايا الخمس(١):

حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ هِلَالٍ الصَّوَّافُ الْبَصْرِيُّ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي طَارِقٍ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ:

اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ.

وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ.

وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا.

وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا.

وَلَا تُكْثِرْ الضَّحِكَ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ(١).

---

(١) من كنوز السنة، محمد علي الصابوني ١١٦.

ب ـ أحبُّ الناس وأحبُّ الأعمال[٢]:

حدث عن أبي القاسم عامر بن خرتم الدمشقي بسنده إلى عبد الله بن عمر قال: أن النبي ﷺ قال: أحبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهُمْ.

وأحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ سرورٌ تدخلُهُ على مسلمٍ: تقضي عنه ديناً، أو تطردُ عنهُ جوعاً.

ولَأَن أمشيَ مع أخٍ لي في حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكفَ في هذا المسجدِ ـ يعني مسجدَ المدينةِ ـ شهرا.

ومَنْ كفَّ غضبَهُ سترَ اللهُ عورتَهُ.

ومَنْ كَظَمَ غيظاً ولو شاءَ أن يُمضيَهُ أمضاهُ ملأَ اللهُ قلبَهُ رضاً يومَ القيامةِ.

ومَنْ مشى مع أخيهِ المسلمِ في حاجتِهِ حتى يثبتَها لَهُ ثبَّتَ اللهُ قدميه يومَ تزولُ الأقدامُ.

وإنَّ سوءَ الخلقِ لَيفسدُ العملَ كما يُفسدُ الخل العسلَ[٣].

ج ـ حديث مع شرح المبرد عليه من كتاب الكامل:

قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبرِكُمْ بأحبِّكُمْ إليَّ وأقربِكُمْ منّي مجالسَ يومَ القيامةِ؟ أحاسنُكُمْ

(١) سنن الترمذي ـ (٢٣٠٥).

(٢) هذا حديث طالما سمعته من فِلْقِ في شيخنا المحدث عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج عن ابن عمر بسند حسن. وهو في صحيح الجامع الصغير للألباني، وقال عنه حديث حسن. رقمه ١٧٦.

أخلاقاً، الموَطَّؤونَ أكنافاً، الذينَ يألفونَ ويُؤلفونَ، ألا أخبرُكُمْ بأبغضِكُمْ إليَّ وأبعدِكُمْ منّي مجالسَ يومَ القيامة؟ الثرثارونَ المتَفَيْهِقُونَ»[1].

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الموطؤون أكنافاً» مثل، وحقيقته أن التوطئة هي التذليل والتمهيد، يقال: دابة وطيء، يا فتى، وهو الذي لا يحرك راكبه في مسيره، وفراش وطيء إذا كان وثيراً لا يؤذي جنب النائم عليه، فأراد القائل بقوله: «موطأ الأكناف» أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى، ولا نابٍ به موضعه.

قال أبو العباس: حدثني العباس بن الفرج الرياشي قال: حدثني الأصمعي قال: قيل لأعرابي وهو المنتجع بن نبهان: ما السميدع؟ فقال: «السيد الموطأ الأكناف».

وتأويل الأكناف الجوانب، يقال في المثل: فلان في كنف فلان، كما فلان في ظل فلان، وفي ذَرى فلان، وفي ناحية فلان، وفي حيز فلان.

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الثرثارون» يعني الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً، وخروجاً عن الحق. وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عينٌ ثرثارةٌ. وكان يقال لنهرٍ بعينه: الثرثار، وإنما سمي به لكثرة مائه، قال الأخطل:

لعمري لقد لاقتْ سليمٌ وعامرٌ   على جانبِ الثرثارِ راغيةَ البَكْرِ

قوله: «راغية البكر» أراد أن بكر ثمود رغا فيهم فأهلكوا، فضربته العرب مثلاً، وأكثرت فيه، قال علقمة بن عبدة الفحل:

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر (٢٠١٨). وروى جزءا منه الإمام أحمد في المسند (١٧٧٣٢)، وابن حبان (٤٨٢).

رغا فوقَهم سَقْبُ السماءِ فداحضٌ   بشِكَّتِهِ لم يُسْتَلَبْ وسَليبُ

قال أبو الحسن: الداحض: الساقط والداحض أيضًا: الزالق.

وكذلك إذا لم تضعف الثاء فقلت: عينٌ ثرةٌ، فإنما معناها غزيرة واسعة، قال عنترة:

جادت عليها كلُّ عينٍ ثرَّةٍ   فتركْن كلَّ حديقةٍ كالدرهمِ

قال أبو العباس: وليست الثرة عند النحويين البصريين من لفظة الثرثارة، ولكنها في معناها.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «المتفيهقون» إنما هو بمنزلة قوله: «الثرثارون» توكيد له، ومتفيهق متفيعل، من قولهم: فهق الغدير يفهق إذا امتلأ ماءٌ فلم يكن فيه موضع مزيد، كما قال الأعشى:

نفى الذمَّ عن رهطِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ   كجابيةِ الشيخِ العراقيِّ تفْهَقُ

كذا ينشده أهل البصرة، وتأويله عندهم أن العراقي إذا تمكن من الماء ملأ جابيته لأنه حضري فلا يعرف مواقع الماء ولا محاله.

قال أبو العباس: وسمعت أعرابية تنشد قال أبو الحسن: هي أم الهيثم الكلابية من ولد المحلق، وهي راوية أهل الكوفة: «كجابية السيح» تريد النهر الذي يجري على جانبية، فماؤها لا ينقطع، لأن النهر يمده. ومثل قول البصريين فيما ذكروا به «العراقي الشيخ» قول الشاعر قال أبو الحسن: هو ذو الرمة:

لها ذنبٌ ضافٍ وذفرى أسيلةٌ   وخَدٌّ كمرآةِ الغريبةِ أسْجَحُ

يقول: إن الغريبة لا ناصح لها في وجهها، لبعدها عن أهلها، فمرآتها أبداً مجلوة، لفرط حاجتها إليها.



وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يريد الصدق في المنطق والقصد، وترك ما لا يحتاج إليه، قوله لجرير بن عبد الله البجلي: «يا جرير، إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف»[1][2].

(١) علق محقق الكامل على هذا الحديث بقوله: «لم أجده».

(٢) الكامل في اللغة والأدب ١/٥ ـ ١٠.



٣ ـ نماذج من خطبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وفي خطبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتبدّى البلاغة في أجمل صورها، وتتجلى الفصاحة في أحلى أشكالها، بيانا ساحرا، وإيجازا باهرا، ومضمونا وافيا واضحا.

ولا غرو فكم حوت هذي الخطب من أحكام، وكم واجهت من مواقف، وكم أجملت من حوادث. ثم كانت على خطورة شأنها وأهمية أمرها، لا تتجاوز الأسطر القليلة حينا والصفحة الواحدة حينا آخر، لأنها مبنية على منهج نبوي رسمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكل خطيب حينما قال: فيما رواه عنه ابن مسعود في هذا:

«إنّ طُول الصّلاةِ وقِصرَ الخُطْبة مَئِنَّةٌ من فِقه الرّجُل»[(١)].

قال الجاحظ: مَئِنَّة كقولك: مَخْلقةٌ ومَجْدَرة ومَحْراة، قال الأصمعيّ: مَئِنَّة: علامة.

وقد اتبع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم هدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، إذ جاء في صحيح مسلم: قال أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلنا يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت فلو كنت تنفّستَ (أي أطلت) قال إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنّ طُول الصّلاةِ وقِصرَ الخُطْبة مَئِنَّةٌ من فِقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة، وإن من البيان سحرا»[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (٨٦٩).

(٢) صحيح مسلم (٨٦٩). وانظر فيه أيضا البيان والتبيين ١/٣٠٣.



وأنت لا تكاد تقف على خطبة من خطب البلغاء والفصحاء والأَبْيِنَاء تتجاوز الصفحات ذوات العدد، بل إن كثيرا من الخطب العصماء التي اشتهرت في دنيا الخطابة لا تتجاوز الصفحة الواحدة، مع أنها اشتملت على معان وقيم وشمائل وحكم صلح عليها أمر الناس وأصبحت مضرب المثل في البلاغة والفصاحة والبيان.

ودونك جمهرة خطب العرب.. ونهج البلاغة.. والبيان والتبيين وقد جمع فيه الجاحظ أجمل الخطب وأبدعها، وأفصحها وأبينها، وأوجزها وأقصرها.

بل هاك خطب رسولنا الكريم ﷺ، ولعل أشهرها خطبة الوداع وهي التي جمعت أحكام الدين، وقضايا الإسلام الكبرى، ووصايا الرسول الكريم في الحرمات.. والنساء.. وعلاقات الناس وتفاضلهم.. وفي العقيدة.. والتوحيد.. والميراث.. ثم لم تبلغ مع ذلك كله تمام الصفحات الثلاث(١).

إن الإيجاز مزية من أروع مزايا كلامه ﷺ، وقد علل ذلك الأستاذ أحمد حسن الزيات بقوله: «والإيجاز هو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، غالب على أسلوب الرسول، لأن الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون في الرسول، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه»(٢).

وسأعمد فيما يأتي إلى إثبات نماذج من خطبه، ﷺ، تخيرت جلَّها

(١) البيان والتبيين ٢/٣١ ـ ٣٣.

(٢) وحي الرسالة ٣/١٩.



من كتاب (خطب مختارة) وهي من اختيار وكالة شؤون المطبوعات والنشر بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية(١)، لما أعلم من حرص القائمين عليها على صحة الحديث وتوخيهم الحيطة والحذر فيما يثبتون من كلام المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أني لم أتخلَّ عن منهجي في توثيق كل خطبة من مظانها في كتب السنن والسير.

۞ أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه.

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إنَّ الرائدَ(٢) لا يَكذبُ أهله، واللهِ لو كذبتُ الناسَ جميعًا ما كذبتُكُم، ولو غررْتُ الناسَ جميعًا ما غررتُكُم.

واللهِ الذي لا إلهَ إلا هوَ إنّي لرسولُ اللهِ إليكم خاصّةً، وإلى الناسِ كافةً.

والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنَّ بما تعملون، ولتجزوُنَّ بالإحسانِ إحسانًا، وبالسوءِ سوءًا، وإنها لجنةٌ أبدًا، أو لنارٌ أبدًا»(٣).

۞ **خطبته** عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **لإعلان نبوته**، ودعوته لقومه بعد نزول قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾(٤) وقوله جل شأنه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

---

(١) تاريخ النشر: ١٤٢٣هـ الطبعة: الثالثة (ج ١/ص ٢٠ وما بعدها)

(٢) الرائد: من يرسله قومه في طلب الكلأ والماء.

(٣) الكامل ٢/ ٢٧ والسيرة الحلبية ١/ ٢٧٢، ونثر الدر للآبي ١/ ٤٩.

(٤) سورة الحجر الآية (٨٩).



وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] وقوله عز من قائل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2]، ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

«ارتقى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الصفا، وصاح بأعلى صوته: «وا صباحاه» ـ وهي صيحة يصيح بها العربي حين يحس بخطر داهم يوشك أن يحيط بقومه أو عشيرته.

ثم أخذ ينادي يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني كعب (لبطون قريش) حتى اجتمعوا فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فال أبو لهب: تبًا لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[4][5].

۞ من خطبة له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ:

قال:

نضَّرَ[6] الله عبدًا سمعَ مقالتي فوعاها، ثم أدّاها إلى من لم يسمعها، فربَّ

---

(١) سورة الحجر الآية (٩٤).

(٢) سورة الشعراء الآية (٢١٤).

(٣) سورة الشعراء الآية (٢١٥).

(٤) سورة المسد الآية (١).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

(٦) أي نعّمه وحسَّن وجهه في خُلُقه وجاهه وقدره.

حاملِ فقهٍ غيرُ فقيه، وربَّ حاملِ فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه.

ثلاثُ خصالٍ لا يُغِلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم أبداً[١]: إخلاصُ العملِ للهِ، ومناصحُة ولاةِ الأمرِ المسلمينَ، ولزومُ الجماعة. فإن دعوتَهم تحيطُ من ورائهم».

«ومَنْ كان همُّهُ الآخرةَ، جمعَ اللهُ شملَهُ، وجعلَ غناهُ في قلبِهِ، وأتتْهُ الدنيا وهي راغمةٌ. ومن كان همُّهُ الدنيا، فرّقَ اللهُ أمَرُه، وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيه، ولم يأتِهِ من الدنيا إلا ما كُتبَ لَهُ»[٢].

ومعنى الخطبة أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر[٣].

۞ خطبته في الأنصار:

قال يخاطب الأنصار بعدما بلغه من وجدهم لعدم إصابتهم من فيء حنين:

«يا معشرَ الأنصارِ، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ[٤] وجدتموها في أنفسِكم؟ ألم آتكمْ ضلالا فهداكُمُ الله بي، وعالةً[٥] فأغناكم اللهُ بي، وأعداءً فألفَ اللهُ بين قلوبِكُم!»

---

(١) أي لا يكون معها في قلبه غش ودَغَل ونفاق.

(٢) هذه الزيادة من إعجاز القرآن للباقلاني ١٣٣.

(٣) النهاية ٣/٣٨١.

(٤) الجِدة: الغضب، من وجد عليه في الغضب يجُد ويجِد وجْدًا وجِدةً وموجِدَةً ووِجْدانًا: غضب.

(٥) جمع عائل أي فقير.

قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل.

ثمَّ قال: ألا تجيبونني يا معشرَ الأنصارِ، قالوا: بماذا نجيبكَ يا رسولَ اللهِ؟ للهِ ولرسولهِ المنُّ والفضلُ، قال رسول الله ﷺ:

أَمَا واللهِ لو شئتُمْ لقلتُم ولصُدِّقْتُم: أتيتَنَا مُكذَّبا فصدَّقناك، ومخذولا[1] فنصرناكَ، وطريدا فآويناكَ، وعائلا فآسيناكَ[2]، أَوَجَدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من لُعاعَةٍ[3] من الدنيا تألَّفت بها قومَاً ليسلموا، ووكلتُكُم إلى إسلامِكِم؟

ألا ترضونَ يا معشرَ الأنصارِ أن يذهبَ الناسُ بالشاءِ[4] والبعيرِ وترجعوا برسولِ اللهِ ﷺ إلى رحالكم!

فوالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصارِ، ولو سلكتِ الناسُ شِعْبا[5] وسلكت الأنصارُ شِعْبا لسلكت شِعْب الأنصار.

اللهمَّ ارحمِ الأنصارَ وأبناء الأنصارِ وأبناء أبناءَ الأنصارِ.

قال: فبكى القومُ حتى أخضَلوا[6] لحاهم، وقالوا: رضينا برسولِ اللهِ ﷺ قَسْما وحظّا»[7].

---

(١) هو من تُرِكَت نصرته وإعانته.

(٢) آسى مواساةً الرجلَ في ماله أي جعله أسوته فيه، والمواساة المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق.

(٣) اللُعاعَة: البقية اليسيرة من كل شيء.

(٤) جمع شاة.

(٥) هو الطريق في الجبل، جمعه شِعاب.

(٦) خَضَّل وأخضلَ الشيء: ندَّاه وبلَّه.

(٧) أخرجه أحمد ٣/٦٧ (١١٧٣٠) عن أبي سعيد الخدري بسند حسن. وهو في مختارات من أدب العرب لأبي الحسن الندوي ١/٣٢ ـ ٣٣.

تعليق:

ما قرأت هذه الخطبة مرة أو سمعتها في مناسبة إلا رأيتني أشارك الأنصار بكاهم، إذ لا يملك الإنسان نفسه أمام هذا المشهد المؤثر، والإنصاف الموضوعي، والبيان المتدفق، إلا أن تتحرك محاجر عينه.

كيف لا وقد بدأ الرسول ﷺ بعتاب رقيق لما بلغه عن بعضهم سخطهم وغضبهم لإيثاره بالغنائم أقواما عليهم مذكرا إياهم بفضل الإسلام عليهم هدايةً وغنىً وتأليفًا بين القلوب.

ثم أردفه بذكر فضل الأنصار ومالهم من التصديق والنصرة والإيواء والمواساة التي يحق لمثلهم بها أن يمنَّ ويتفضل، ولكنه يتبع ذلك بكلمة لا يمكن أن تدع في قلب واحد منهم موضعا لسخط أو غضب أو عتب: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء[1] والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم! هل يمكن لعاقل بعدها أن تتحرك نفسه بغير البكاء والرضى والقبول؟!

ثم يؤكد ذلك بحبه للأنصار وإيثاره العيش بينهم وسلوك واديهم، ليختم بأجمل دعاء وأرجاه وأحلاه: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

والحق أن كل ما في هذه الخطبة بليغ فصيح بل هو في الغاية من البيان والفصاحة والجمال، بدءا من مفرداتها، ومرورا بتراكيبها، وانتهاء بضروب المحسِّنات فيها.

---

(١) جمع شاة.

ولعل أول ما يلفت نظر القارئ المتذوق هذه المفردات الدقيقة الموحية التي اختيرت بعناية بالغة لتناسب المقام، من نحو: جِدة. عالة واسيناك.. لُعاعة.. شعار.. دثار...

ثم إنها صيغت بجمل قصيرة يغلب عليها الأسلوب الإنشائي الاستفهامي، فغدت أقرب للقلوب وأرجى للقبول، بل هي لامست شغاف القلوب بما اشتملت عليه من حجة وإقناع وتذكير وتحبُّب وموازنة.

وقد تخللتها محسنات بديعية زادتها بهاءً وجمالا:

أهمها الطباق الذي تبدى في كثير من مقاطعها: بين الضلالة والهدى، والتكذيب والتصديق، والخذلان والنصرة، والشعار والدثار...

والسجع في مثل قوله: فصدقناك، ونصرناك، وآويناك، وواسيناك...

والجناس الناقص في: جِدة وجدتموها..

وما أحسن ما عبَّر به الأستاذ الدكتور محمد رجب بيومي بعد إيراده هذه الخطبة في كتابه البيان النبوي، حيث قال: «هذه الكلمات المنصفة قد نزلت على القلوب نزول الغيث الدافق على المحل الظامئ، فأخضبت الجديب، وأنعشت الذاوي، بل إن تيارها القوي قد دفع بالدمع إلى العيون، ففاضت المحاجر ندما واستسلاما، ولا أجد أروع ولا أبدع من براعة المقابلة المذهلة ين رجوع المهاجرين بالشاة والبعير، ورجوع الأنصار برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وهي إحدى وثبات العبقرية في خطابة الرسول. وكم لها من أمثال»[1].

(١) البيان النبوي ص٨٩.

۞ خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوداع:

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الحمدُ للّه، نَحْمَده ونَستعينُه، ونستغفرُه ونَتوب إليه، ونعوذُ بالله مِن شُرور أنفسِنا، ومن سيِّئات أعمالنا، مَن يَهدِهْ الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهَدُ أن لا إله إلاّ اللهُ وحْدَه لا شريك له، وأشهد أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، أُوصِيكم عِبَادَ الله بتَقوى الله، وأحُثّكُمْ على طاعته، وأستفتِحُ بالذي هو خير.

أمّا بعد،

أيُّها الناس اسمَعُوا منِّي أبيِّنْ لكم، فإنِّي لا أدرِي، لعَلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا في موقِفي هذا.

أيُّها الناس: إنَّ دماءَكم وأموالَكم حرام عليكم إلى أنْ تلقَوْا ربّكم، كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بَلَّغت؟ اللهم اشهَدْ.

فمَنْ كانت عِنده أمانة فليؤدِّها إلى الذي ائتَمنَه عليها.

وإنَّ رِبا الجاهليّة موضوع، وإنّ أوّلَ رباً أَبْدأُ به ربَا عمِّي العباس بنِ عبد لمطَّلب.

وإنَّ دماءَ الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّلَ دمٍ نبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب.

وإنَّ مآثِرَ الجاهلية موضوعة، غيرَ السِّدانة[1] والسِّقاية، والعَمْد قوَد[2]،

(١) السدانة بفتح السين وكسرها: خدمة الكعبة. والسقاية: ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء.

(٢) أي في القتل المتعمد القَوَد وهو بالتحريك: قتل القاتل بالقتيل.

وشِبْه العَمد: ما قُتل بالعصا والحجَر، وفيه مئة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهليّة.

أيّها الناس، إنّ الشيطان قد يئَس أن يُعبَدَ في أرضكم هذه، ولكنّه قد رضيَ أن يُطاعَ فيما سوى ذلك مما تَحْقرون من أعمالكم.

أيُّها الناس: إنّ النّسيء[1] زيادةٌ في الكُفْر يُضلُّ به الذّينَ كَفَرُوا يُحِلّونه عاماً ويُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطئُوا عِدَّةَ مَا حَرّمَ اللهُ فَيُحِلّوا مَا حَرّمَ اللهُ، إنّ الزّمانَ قد استدار كهيئته يَوْمَ خلق اللهُ السَّمواتِ والأرض، وإنّ عِدَّةَ الشّهُورِ عِنْدَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كتِابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السّمواتِ وَالأَرْض، مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثلاثة متواليات وواحدٌ فرد: ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرم، ورَجب الذي بين جُمادى وشعبان، ألا هَلْ بلَّغْت؟ اللهم اشهد.

أيُّها النَّاس إنّ لنسائكم عليكمْ حَقّاً، ولكمْ عليهنَّ حقّ، لكم عليهنَّ ألاّ يُوطِئن فُرُشَكم غيرَكم، ولا يُدْخِلْن أحداً تكرهونه بيوتَكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ، فإنْ فعلْنَ فإنّ الله قد أذِن لكم أن تعضُلوهنّ[2] وتهجروهنَّ في المضاجع، وتضربُوهنّ ضرباً غير مبرِّح، فإن انتهين وأطعنَكم فعليكم رِزقُهنَّ وكُسوتُهُنَّ بالمعروف، وإنّما النساء عندكم عَوَانٍ[3] لا يملكن لأنفسهنَّ شيئاً، أخذتُموهنَّ بأمانة الله، واستحللتُم فروجَهُنَّ بكلمة الله، فاتّقوا الله في النِّساء واستوصوا بهنَّ خيراً، ألا هل بلَّغت؟ اللهم اشهد.

---

(١) النسيء: شهر كانت العرب تؤخره في الجاهلية، بغية ألا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها، لأن معاشهم كان من الغارة.

(٢) العضل من الزوج لامرأته أن يُضارَّها ولا يحسن عِشرتها ويمنعها حقَّها.

(٣) جمع عانية، وهي الأسيرة. أي هي عندكم بمنزلة الأسيرة.

أيُّها الناس، إنّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ، ولا يحلُّ لامرئ مُسْلِمٍ مالُ أخيه إلاّ عن طِيب نفسٍ منه، ألاَ هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد.

فلا ترجِعُنَّ بعدي كُفّاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض، فإني قد تركتُ فيكم ما إنْ أخذتُم به لم تَضلُّوا بعدَه: كتابَ الله، ألاَ هل بلَّغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناس، إنَّ ربَّكم واحد؛ وإنَّ أباكم واحد؛ كلّكم لآدم وآدمُ مِن ترابٍ، أكرمُكم عِنْدَ الله أتقْاكُم، إنّ الله عليم خبيرٌ، وليس لعربيّ على عجَميٍّ فضلٌ إلا بالتّقوى، ألا هل بلّغت؟ اللهمَّ اشهد.

قالوا: نعم، قال: فليبلِّغ الشّاهدُ الغائب.

أيُّها الناس، إنّ الله قَسَم لكلِّ وارث نصيبَه من الميراث، فلا تجوزُ لوارثٍ وصيَّةٌ، ولا تجوز وصيَّةٌ في أكثَرَ من الثُّلُث، والوَلَدُ للفِراش، وللعاهر الحجَرُ[١]، من ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مُواليه فعليه لعنةُ الله والملائكة والنّاس أجمعين، لا يُقبل مِنْه صَرفٌ ولا عَدْلٌ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٢].

(١) أي لاحق للزاني في النسب ولا في الولد، وإنما هو لصاحب الفراش أي للزوج أو المولى.

(٢) البيان والتبيين٢/٣١ ـ ٣٣. وهي في الطبري ٣/١٦٨، وابن الأثير ٢/١٤٦، وابن أبي الحديد ١/٣١، وسيرة ابن هشام ٩٦٨. ولجلها شواهد في كتب الصحاح والسنن.



٤ ـ مواقف ومشاهد

أفردت هذه المواقف والمشاهد لأنها تشتمل على حوار بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض أصحابه، يتبدى فيه البيان الساحر.. والإيجاز الباهر.. والفصاحة والبلاغة.. في أجمل صورها وأسمى معانيها.

۞ مع عمرو بن الأهتم:

روى الحاكم في المستدرك:

أخبرنا أبو منصور محمد بن علي الفارسي، ثنا أبو بكر محمد بن شاذان الجوهري، ثنا سعيد بن سليمان القسيطي، ثنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن أبيه، عن أبي بكرة، قال:

كنا عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقدم عليه وفد بني تميم فيهم قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر.

فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن الأهتم: ما تقول في الزبرقان بن بدر، فقال:

يا رسول الله، مطاع في ناديه، شديد العارضة[١]، مانع لما وراء ظهره[٢].

فقال الزبرقان: يا رسول الله والله إنه ليعلم مني أكثر مما وصفني به، ولكنه حسدني.

---

(١) عارضة الإنسان صفحتا خديه، وإنه لشديد العارضة أي شديد الناحية ذو جلد وصرامة.

(٢) أي حامٍ لقومه.

فقال عمرو: والله يا رسول الله، إنه زَمِرُ[١] المروءة، ضيّق العطن[٢]، لئيم[٣] الخال، أحمق الموالد، والله ما كذبت أولا، ولقد صدقت آخرا، ولكني رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت.

فقال النبي ﷺ: «**إنَّ من البيانِ لسحرا وإنَّ منَ الشعرِ لحكمَا**»[٤].

وهاك رواية أخرى للحديث تنطوي على نعوت أخرى:

ـ قال الحاكم حدثنا أبو زكريا العنبري، ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عبيدة الوبري ح، وحدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكي، ثنا إبراهيم بن محمد بن إدريس المعقلي، قالا: ثنا علي بن حرب الموصلي، ثنا أبو سعد الهيثم بن محفوظ، عن أبي المقوم الأنصاري يحيى بن أبي يزيد، عن الحكم بن عتبة، عن مقسم، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال:

جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم التميميون ففخر الزبرقان، فقال:

يا رسول الله، أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب فيهم، أمنعهم من الظلم فآخذ لهم بحقوقهم، وهذا يعلم ذاك. يعني عمرو بن الأهتم.

فقال: عمرو بن الأهتم: والله يا رسول الله، إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في ناديه.

---

(١) قليل المروءة.

(٢) العَطَن للإبل كالوطن لناس، وضيق العطن كناية عن قلة ماله وضيق رحله.

(٣) اللئيم: الدنيء الأصل الشحيح النفس.

(٤) المستدرك (٦٥٦٩).

قال الزبرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني غير ما قال، وما منعه أن يتكلم به إلا الحسد.

قال عمرو: أنا أحسدك فوالله إنك لئيم الخال، حديث المال، أحمق الموالد، مضيع في العشيرة، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا، وما كذبت فيما قلت آخرا، لكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت، ووالله لقد صدقت في الأمرين جميعا.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ من البيانِ لسحرا إنَّ من البيانِ لسحراً» وقد روي عن أبي بكرة الأنصاري أنه حضر هذا المجلس[(١)].

❁ **مع ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

جاء في سنن الترمذي:

٢٤٤٠ ـ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ أَخْبَرَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ قَيْسِ بْنِ الْحَجَّاجِ قَالَ ح وحَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَخْبَرَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنِي قَيْسُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْمَعْنَى وَاحِدٌ عَنْ حَنَشٍ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٦٥٦٨).

اللهُ عَلَيْكَ. رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ. قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[١].

وفي رواية غير التِّرمذي: «احفظ الله تجده أمامَك، تَعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاء يَعْرِفْك في الشِّدَّةِ، واعلَمْ أنَّ ما أخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُن ليُخطِئَكَ، واعلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسراً»[٢].

۞ مع أعرابي:

جاء في سنن أبي داود[٣]:

٦٧٢ ـ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ زَائِدَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِرَجُلٍ كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ.

۞ مع حسان بن ثابت:

* جاء في البيان والتبيين[٤]:

قالوا: ويدلُّ على ذلك قولُ حسَّانِ بن ثابت، حين قال له عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما

(١) سنن الترمذي (٢٥١٦)، ومسند أحمد (٢٦٦٩). والمستدرك (٦٣٠٤).
(٢) جامع العلوم والحكم (٤٥٩/١).
(٣) سنن أبي داود ٤٤٦/٢. وهو في سنن ابن ماجة ١٥٨/٣، ومسند أحمد ٦١/٣٢.
(٤) البيان والتبيين ٦٣/١.

ذكره الحافظ: ما بَقي من لسانك؟، فأخرج لسانَه حتَّى قَرَع بطرَفه طرَف أرْنَبته، ثم قال: والله أنْ لو وضعتهُ على شعرٍ لحلَقه، أو على صخرٍ لفلقه وما يسرُّني به مِقْوَلٌ[1] من مَعَدّ.

* وجاء فيه أيضا[2]:

قال لحسان: هَيِّج الغطاريف على بني عبد مناف؛ والله لشِعْرُك أشدُّ عليهم من وَقْع السِّهام، في غبَش الظَّلام.

(١) أي لسان.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٧٣.

ثانياً: من بيان الآل
عليهم الرحمة والرضوان

آل البيت رضي الله تعالى عنهم، تربَّوا في بيت النبوة، ونشؤوا في كنفها، ودرجوا في ربوعها، فلا غرو أن تأثروا ببيانها، ورشفوا من رحيقها، ونهلوا من معينها.

قال مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما برح أهل البيت رضوان الله عليهم يتوارثون بلاغة هي فوق بلاغة الناس، إلى أن انقضت السلائق العربية، وذلك فضل لا يدفعه من هذه الأمة أحد، وإنما هي ذرية بعضها من بعض»[١].

وقال الحصري القيرواني في كتابه زهر الآداب تحت عنوان: «بعض ما قاله أهل البيت»: قطعة من كلام لبني علي بن أبي طالب أهْلِ البيتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: أهلِ الفضل والإحسان، وتلاوة القرآن، ونَبْعَة[٢] الإيمان، وصُوَامِ شهر رمضان ولهم كلام يعرض في حَلْي البَيَانِ، ويُنْقَش في فصّ الزمان، ويُحْفَظُ على وَجْهِ الدهر، ويَفْضَحُ قلائدَ الدُر، ويُخْجِلُ نورَ الشمس والبدر، ولمَ لا يطؤون ذُيولَ البلاغة، ويَجرُون فضولَ البراعة، وأبوهم الرسولُ، وأُمُّهم البتول، وكلّهم قد غُذي بدَرّ الحكم، ورُبِّيَ في حِجْر العلم:

---

(١) تاريخ آداب العرب ٢/٣٤١.

(٢) النبعة وجمعها النبع: شجرة من أشجار الجبال تتخذ منها القِسيُّ أي الأقواس، وقوسها من أجمع القسي للشدة واللين.

مَــا مَــنهُمُ إلاَ مُرَبَّــى بالحِجَــا[١] أو مُبْشَــرٌ بالأَحْوَذِيَــةِ[٢] مُــؤدَمُ[٣]

وقال آخر:

نَمَتْــهُ العَــرانين[٤] مِــنْ هاشِــمٍ إلــى النَّسَــبِ الأصْـرَحِ الأوْضَـح
إلــى نَبْعَــة فرْعُهــا فــي السـماء ومَغْرِسُــها فــي ذُرَى الأبْطَــحِ[٥]

وهم كما قال مسلم بن بلال العبدي ـ وقد قيل له: خطب جعفرُ بن سليمان خطبةً لم يرَ أحسن منها، فلا يُدرى أوَجهه أحسن أم خطبته؛ فقال:

أولئك قوم بنور الخلافة يُشْرِقون، وبلسان النبوَّة ينطقون، وفيهم يقول القائل:

لـو كـانَ يُوجَـدُ عَرْفُ مَجْدٍ قَبْلَهُمْ لَوَجَدْتُــه مــنهمْ علــى أميــالِ
إن جئـتَهُم أبْصَـرْت بـينَ بيـوتِهِمْ كَرَمــاً يَقيــكَ مَواقــفَ التَّسْــآلِ
نــورُ النبــوّة والمكــارم فــيهمُ متوقّــد فــي الشِّـيبِ والأطفــالِ

وسُئِلَ سعيد بن المسيب: مَنْ أبلغُ الناس؟ فقال: رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال السائل: إنما أعني مَنْ دونه. فقال: معاوية وابنُه، وسعيد وابنه، وإنَ ابنَ الزبير لحسَنُ الكلام، ولكن ليس على كلامه ملح. فقال له رجل: فأين أنتَ من عليّ وابنه، وعباس وابنه؟ فقال: إنما عَنَيت من تقارَبَتْ أشكالُهم، وتدانَتْ أحوالُهم، وكانوا كسهَامِ الجَعبَةِ، وبنو هاشم أعلامُ الأنامِ، وحُكَّامُ الإسلام[٦].

(١) الحِجا: العقل والفطنة.
(٢) الأحوذي: المشمِّر في الأمور القاهر لها الذي لايشذ عليه منها شيء.
(٣) رجل مُؤْدَمٌ مُبْشَر: حاذق مجرَّب قد جمع لينا وشدة مع المعرفة بالأمور.
(٤) عرانين الناس وجوههم، والعر انين جمع عرنين وهو أول الأنف حيث يكون فيه الشمم.
(٥) الأبطح: أبطح مكة وهو مسيل واديها.
(٦) زهر الآداب وثمر الألباب ٨٦/١ ـ ٨٧.

فاطمة الزهراء

بضعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

* وقفت فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على قبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت:

مـا ضـرَّ مـن قـد شـمَّ تربـةَ أحمـدٍ ... ألا يشَـمَّ مـدى الزمـانِ غواليـا[(١)]
صُـبَّت علـيَّ مصـائبٌ لـو أنّهـا ... صُبَّتْ على الأيـام صرنَ لياليا[(٢)]

* وحدث أبو بكر بن دريد عن عبد الأول بن يزيد قال: حدّثني رجل في مجلس يزيد بن هارون بالبصرة قال: لما تُوفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دُفِن ورجع المهاجرون والأنصار إلى رحالهم، ورجعت فاطمة إلى بيتها؛ فاجتمع إليها نساؤها، فقالت:

اغبـرَّ آفـاقُ السـماءِ، وكُـوِّرَتْ ... شـمسُ النهـار، وأَظْلَـم العصـرانِ
فـالأرضُ مـن بعـد النبـي كئيبـةٌ ... أسـفاً عليـه كثيـرةُ الرجَفَـانِ
فَلَيَبْكِـهِ شَـرْقُ الـبلاد وغَرْبُهـا ... وليبكـه مُضَـرٌ وكـلُّ يَمَـانِ

---

(١) الغوالي جمع غالية وهو نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودُهن. وفي حديث عائشة: كنت أغلِّف لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغالية. والتغلف بها التلطُّخ. (اللسان: غلا).

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ٥/١٧٣

وليبكـه الطــورُ المعظّــم جَــوُّهُ والبيــتُ ذو الأسْــتَار والأَركــانِ
يا خـاتم الرسل المبارك ضـوءُهُ[1] صــلَّى عليـك منــزِّلُ الفُرقــانِ[2]
نفسـي فـداؤك مـا لرأسـك مـائلاً مــا وسَّــدوك وســادة الوســنان[3]

(١) في كتاب العمدة ٢/٨٤١: صنوه.
(٢) زهر الآداب ١/٦٠، والعمدة ٢/٨٤١.
(٣) زيادة من نهاية الأرب ٥/١٧٣، وتعليق من أمالي ابن دريد ١/٢٧. وليست في العمدة ولا زهر الآداب.



علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

فضله ومكانته:

قال غندر: حدثنا شعبة عن ميمون أبي عبد الله، عن زيد بن أرقم أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه». قال الذهبي: هذا حديث صحيح[1].

وقال الأعمش، عن عدي بن ثابت، عن زر، عن علي، قال: عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلي أنه: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». أخرجه مسلم، والترمذي وصححه[2].

١ ـ من كلامه في خطبة له رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

أوصيكم أيها الناس بتقوى الله وكثرة حمده على آلائه إليكم. ونعمه عليكم. وبلائه لديكم. فقد خصكم بنعمه. وتدارككم برحمته. أعورتم[3] له فستركم. وتعرضتم لأخذكم فأمهلكم.

وأوصيكم بذكر الموت. وإقلال الغفلة عنه. وكيف تغفلون عمن ليس

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (راشدون/٢٣١)

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (راشدون/٢٣٥ ـ ٢٣٦)

(٣) أي بدت عوراتكم، والعرب تقول: أعور منزلك إذا بدت منه عورة.



يغفل عنكم. وطمعتم فيمن ليس يمهلكم. فكفى بموت واعظاً.

عاينتموهم حُمِلوا على قبورهم غيرَ راكبين وأُنزِلوا فيها غيرَ نازلين. كأنهم لم يكونوا عُمَّاراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً.

أوحشوا ما كانوا يوطنون وأوطنوا ما كانوا يوحشون. واشتغلوا بما فارقوا. وأضاعوا ما إليه انتقلوا. لا عن قبيح يستطيعون انتقالا. ولا في حسن يستطيعون ازدياداً. آنسوا بالدنيا فغرتهم. ووثقوا بها فصرعتهم.

فسابقوا رحمكم الله تعالى إلى منازلكم التي أُمِرتم أن تعمروها ودعيتم إليها. فاستتمّوا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته، والمجانبة لمعصيته، فإن غدا من اليوم قريب.

ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنين، وأسرع السنين في العمر[1].

تعليق:

قال الجاحظ في البيان والتبيين:

كان أبو بكر خطيبا، وكان عمر خطيبا، وكان عثمان خطيبا، وكان علي أخطبهم[2].

٢ ـ ومن خطبه رضي الله عنه:

أمّا بعدُ فإن الدنيا قد أدبَرَت وآذنت بوَداع، وإنّ الآخرة قد أقبلت

(١) الإعجاز والإيجاز ١/٦ ـ ٧.

(٢) البيان والتبيين ١/٣٥٣.

وأشرفت باطِّلاع، وإنّ المضمار اليومَ والسِّباقَ غداً[١].

ألاَ وإنّكم في أيامِ أملٍ من ورائه أجل، فمَن أخلَصَ في أيام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرُرْهُ أمله، ومن قصّر في أيام أمَله قبل حضور أجَله، فقد خسِر عملُه، وضَرّه أملُه.

ألاَ فاعمَلوا للّهِ في الرَّغبة، كما تعملون له في الرَّهبة، ألاَ وإنِّي لم أر كالجنّة نام طالبُها، ولا كالنَّار نامَ هاربها[٢].

ألا وإنّه من لم ينفعْه الحقّ يضرّه الباطل، ومن لم يستقم به الهُدَى يَجُرْ بِهِ الضّلال[٣].

ألاَ وإنّكم قد أُمرتم بالظَّعْن، ودُلِلتُم على الزّاد، وإنّ أخوفَ ما أخاف عليكم اتّباعُ الهوى وطُولُ الأمل[٤].

تعليق:

قوله: «ألاَ وإنّكم في أيامِ أملٍ من ورائه أجل...» يبدو أن الشريف الرضي قد اقتبس منه في مرثيته الرائعة:

مــا أســرع الأيــام فــي طيِّنــا ... تمضــي علينــا ثــم تمضــي بنــا
فــي كــل يــوم أمــلٌ قــد نــأى ... مَرامُــهُ، عــن أجــل قــد دنــا
أنــذرنا الــدهر ومــا نرعــوي ... كأنمــا الــدهر ســوانا عنــى

(١) المضمار الزمان أو المكان الذي تضمر فيه الخيل للسباق.

(٢) أي نام من كان ينبغي أن يهرب منها.

(٣) يجر، من الجور وهو الميل عن القصد.

(٤) البيان والتبيين ٢/٥٢ ـ ٥٣.

تعاشـــياً، والمـــوت فـــي جـــده   مـــا أوضـــح الأمـــر ومـــا أبينـــا

٣ ـ ومن روائع خطبه أيضاً:

أيها الناس، احفظوا عنّى خمساً، فلو شَددتم إليها المَطايا حتى تُنضوها[١] لم تَظفروا بمثلها:

ألا لا يرجونّ أحَدُكم إلا ربّه، ولا يخَافن إلا ذَنبَه، ولا يَسْتَحي أحدُكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم؛ إي وإن الخامسةَ الصَبر؛ فإن الصبرَ من الإيمان بمنزلة الرأس من الجَسَد. مَن لا صَبْر له لا إيمان له، ومَن لا رأسَ له لا جَسد له.

ولا خير في قراءة إلاَّ بتدبّر، ولا في عبادة إلا بتفكر، ولا في حِلْم إلا بعلم.

ألا أنبئكم بالعالِم كُلِّ العالم، مَن لم يُزين لعباد الله معاصيَ الله، ولم يؤمنهم مَكْرَه، ولم يُؤْيسهم من رَوْحه.

ولا تُنْزلوا المُطِيعين الجَنَّة، ولا المُذْنبين المُوَحدين النار، حتى يَقْضيَ الله فيهم بأمره.

لا تأمنوا على خير هذه الأمة عذابَ الله، فإنه يقول: فَلاَ يَأمن مَكْرَ الله إلا القومُ الخاسِرُون. ولا تُقْنِطوا شر هذه الأمة من رحمة الله، فإنّه لا ييأس من رَوْح اللهِ إلا القومُ الكافرون[٢].

(١) أي تجعلوها هزيلة. أنضى فلان بعيره أي هزله.

(٢) العقد الفريد ٤/١٦٩

٤ ـ ومن بعض كلامه للحسين رضي الله تعالى عنهما[١]:

١ ـ يا بنيَّ أوصيك بتقوى الله عز وجلّ في الغيب والشهادة. وكلمة الحق في الرضى والغضب. والقصد في الغنى والفقر. والعدل في الصديق والعدو. والعمل في النشاط والكسل. والرضى عن الله تعالى في الشدة والرخاء.

٢ ـ يا بني ما شرٌّ بعده الجنة بشر. ولا خيرٌ بعده النار بخير. وكل نعيم دون الجنة محقور. وكل بلاء دون النار عافية.

٣ ـ اعلم يا بني أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره. ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته. ومن سل سيف البغي قتل به. ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها. ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره. ومن كابد الأمور عطب. ومن اقتحم البحر غرق. ومن أعجب برأيه ضل. ومن استغنى بعقله زل. ومن تكبر على الناس ذل. ومن سفه عليهم شتم. ومن دخل مداخل السوء اتهم. ومن خالط الأنذال حقر. ومن جالس العلماء وقر. ومن مزح استخف به. ومن اعتزل سلم. ومن ترك الشهوات كان حراً. ومن ترك الحسد كان له المحبة من الناس.

٤ ـ يا بني عز المؤمن غناه عن الناس. والقناعة مال لا ينفد. ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير. ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه. العجب ممن خاف العقاب فلم يكف. ورجا الثواب فلم يعمل. الذكر نور. والغفلة ظلمة. والجهالة ضلالة. والسعيد من وعظ بغيره. والأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين.

---

(١) رتبت هذه الوصايا في فقرات مرقمة بغية التعليق عليها، وتسهيل الرجوع إلى كل منها.



٥ ـ يا بني ليس مع قطيعة الرحم نماء. ولا مع الفجور غنى. يا بني العافية عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت إلا بذكر الله تعالى وواحد في ترك مجالسة السفهاء. ومن تزين بمعاصي الله عز وجلّ في المجالس ورّثه ذلا. ومن طلب العلم علم.

٦ ـ يا بني رأس العلم الرفق. وآفته الخرق. ومن كنوز الإيمان الصبر على المصائب. العفاف زينة الفقر. والشكر زينة الغنى. ومن أكثر من شيء عرف به. ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه. ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار.

٧ ـ يا بني لا تؤيسنَّ مذنباً فكم من عاكف على ذنبه ختم له بالخير. ومن مقبل على عمله مفسد له في آخر عمره صار إلى النار. من تحرَّ القصد خفت عليه الأمور.

٨ ـ يا بني كثرة الزيارة تورث الملالة. يا بني الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم. إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

٩ ـ يا بني كم من نظرة جلبت حسرة وكم من كلمة جلبت نعمة. لا شرف أعلى من الإسلام. ولا كرم أعلى من التقوى. ولا معقل أحرز من الورع. ولا شفيع أنجح من التوبة. ولا لباس أجمل من العافية. ولا مال أذهب للفاقة من الرضى بالقوت. ومن اقتصر على بلغة الكفاف تعجل الراحة وتبوأ حفظ الدعة.

١٠ ـ الحرص مفتاح التعب. ومطية النصب. وداع إلى التقحم في الذنوب. والشر جامع لمساوئ العيوب. وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك.

لأخيك عليك مثل الذي عليك لك. ومن تورط في الأمور من غير نظر في الصواب فقد تعرض لمفاجأة النوائب.

١١ ـ التدبير قبل العمل يؤمنك الندم. من استقبل وجوه العمل والآراء عرف مواقع الخطا. الصبر جنة من الفاقة. في خلاف النفس رشدها. الساعات تنقص الأعمار. ربك للباغين من أحكم الحاكمين. وعالم بضمير المضمرين. بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد. في كل جرعة شَرَق وفي كل أكلة غصص. لا تنال نعمة إلا بفراق أخرى.

١٢ ـ ما أقرب الراحة من التعب. والبؤس من النعيم. والموت من الحياة، فطوبى لمن أخلص لله تعالى علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته. وبخٍ بخٍ لعالم علم فكف. وعمل فجد. وخاف الثبات. فأعد واستعد. إن سئل أفصح. وإن ترك سكت. كلامه صواب. وصمته من غير عي عن الجواب. والويل كل الويل لمن بلي بحرمان وخذلان وعصيان. واستحسن لنفسه ما يكرهه لغيره.

١٣ ـ من لانت كلمته وجبت محبته. من لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة. لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس. ولا أي طعاميه أكل[١].

تعليق:

هذه وصايا وحكم تجمع بين البيان الساحر والإيجاز الباهر، وهي تنطوي إلى ذلك على أشرف المعاني، وأسمى الأخلاق، وأجل المواعظ،

(١) الإعجاز والإيجاز للثعالبي ٤١ ـ ٤٣.



وقد صيغت بصياغة أين منها صياغة الذهب؟! ورسمت بريشة أين منها ريشة الرسامين؟!...

وفي هذه الكلمات الرائعات والوصايا المحكمات من فنون البلاغة والبيان ما يعجز عنه التعبير، إذ جمعت بين الإيجاز الرصين، والبيان العالي، والإبلاغ في التعبير، والحكمة الهادية، والسلاسة المعجبة، والقدرة على التنوع والتفنن.

فقد بدأها في المقطع الأول بما تبدأ به الوصايا أي بالفعل (أوصي) مقرونا بفحوى التوصية، وقد اشتملت كل وصية من وصايا هذا المقطع على **فن الطباق** وهو محسن بديعي يجمِّل الكلام ويقرب المعنى، وفق قول الشاعر:

والحسنُ يُظهِرُ حسنَهُ الضدُّ.

«أوصيك بتقوى الله عز وجلّ في الغيب والشهادة. وكلمة الحق في الرضى والغضب. والقصد في الغنى والفقر. والعدل في الصديق والعدو. والعمل في النشاط والكسل. والرضى عن الله تعالى في الشدة والرخاء».

تأمل الطباق بين الغيب والشهادة، وبين الرضى والغضب، وبين الغنى والفقر....

وثنى في المقطع الثاني بجمل تشتمل على **فن المقابلة:** ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير. وكل نعيم دون الجنة محقور. وكل بلاء دون النار عافية.

فالشر يقابله الخير، والجنة يقابلها النار، والشر الثانية يقابلها الخير الثانية. وكذا في الجملة الأخرى...

ثم أردفها في المقطع الثالث بجمل شرطية جمعت صنوف الحكم:

«اعلم يا بني أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره. ومن رضي بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته. ومن سل سيف البغي قتل به. ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها. ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ومن نسي خطيته استعظم خطية غيره. ومن كابد الأمور عطب. ومن اقتحم البحر غرق. ومن أعجب برأيه ضل».

وهي كما ترى في غاية الإيجاز والإبداع، مع ما تشتمل عليه من عظيم المعاني والحكم. وبديع المحسنات والصور فالبغي له سيف من سله قتل به، وتدبير السوء بئر من حفرها وقع فيها، وهو ما يسمى عند البلاغيين **استعارة تصريحية**.

وفي المقطع الرابع جمل اسمية لا يعدو بعضها المبتدأ والخبر، لكنه في غاية الجمال والاتساق: «الذكر نور. والغفلة ظلمة. والجهالة ضلالة...» وهي تشتمل على صور بيانية، تسمى عند أهل البلاغة **بالتشبيه البليغ**، إذ شبه الذكر بالنور، والغفلة بالظلمة.. دون ذكر أداة التشبيه أو وجه الشبه.

ويمتد بعضها ليشتمل على مكملات تزيد الجملة بهاء وسنىً: «والسعيد من وعظ بغيره. والأدب خير ميراث وحسن الخلق خير قرين».

وفي المقطع الخامس يستعمل النفي بليس مقدما خبرها على اسمها في أسلوب بلاغي يدعى **بالقصر**: «يا بني ليس مع قطيعة الرحم نماء. ولا مع الفجور غنى».

وفي المقطع السادس جمل شرطية متتابعة متراكبة، آخذ بعضها برقاب

بعض، بل مبني بعضها على بعض، تسلمك الأولى للثاني والثانية للثالثة... وهكذا في نظام لا ينقضي من العجب: «ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه. ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

وفي المقطع السابع **أسلوب التعليل**، فقد نهى عن أمر ثم علل سبب النهي بكم التكثيرية: يا بني لا تؤيسنَّ مذنباً فكم من عاكف على ذنبه ختم له بالخير. ومن مقبل على عمله مفسد له في آخر عمره صار إلى النار.

وفي المقطع الثامن يبدو **فن السجع**: «يا بني كثرة الزيارة تورث الملالة.... إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله» بين الزيارة والملالة، وبين نفسه وعقله.

وفي المقطع التاسع يستعمل لا النافية للجنس في نسق بديع يبدي علو الإسلام، وكرم التقوى، وحرز الورع، ونجاع التوبة، وجمال العافية: «لا شرف أعلى من الإسلام. ولا كرم أعلى من التقوى. ولا معقل أحرز من الورع. ولا شفيع أنجح من التوبة. ولا لباس أجمل من العافية».

وفي المقطع العاشر فن **السجع** أيضا بين التعب والنصب، وبين الذنوب والعيوب: «الحرص مفتاح التعب. ومطية النصب. وداع إلى التقحم في الذنوب. والشر جامع لمساوئ العيوب» ولا يخفى ما في التعابير الإضافية مفتاح التعب. ومطية النصب من صور. ومن جمال التعبير استعمال التمييز بعد كفى في قوله: «وكفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك».

وفي المقطع الحادي عشر تصوير بديع مستقى من قوله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾(١). إذ هو يشبه العدوان بأسوأ زاد يتزوده المرء لآخرته: «بئس الزاد للمعاد العدوان على العباد». ثم يتبعه بتعبير فيه أسلوب القصر: «في كل جرعة شَرَق وفي كل أكلة غصص» بتقديم الخبر على مبتدئه النكرة.

وفي المقطع الثاني عشر ضروب من المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية، ففيه **الموازنة**، **والسجع**، **والطباق**، **وحسن التقسيم**: «ما أقرب الراحة من التعب. والبؤس من النعيم. والموت من الحياة، فطوبى لمن أخلص لله تعالى علمه وعمله وحبه وبغضه وأخذه وتركه وكلامه وصمته. وبخٍ بخٍ لعالم علم فكف. وعمل فجد. وخاف الثبات. فأعد واستعد. إن سئل أفصح..».

وفي المقطع الثالث عشر كذلك بعض أنواع البديع **كالجناس الناقص** بين الحياء والحياة، و**السجع** بين كلمته ومحبته، و**الطباق** بين الموت والحياة: «من لانت كلمته وجبت محبته. من لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة. لا تتم مروءة الرجل حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس. ولا أي طعاميه أكل».

وبعد؛ فهذا غيض من فيض أشرت فيه إلى بعض ما تحويه هذه الوصايا والحكم من ضروب البلاغة والبيان والبديع، وهو منبهة على ما وراءه من هذه الفنون.

٥ ـ ومن وصاياه:

❊ عن وكيع عن عمرو بن منبه عن أوفَى بن دلهم قال: قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٧).

تعلّموا العلمَ تُعرَفُوا به واعمَلُوا به تكونوا من أهله[1]. استغن عمن شئتَ تكن نظيرَه. واحتج إلى من شئت تكن أسيرَه. وأحسن إلى من شئت تكن أميرَه.

* إن الدنيا قد ارتحلت مُدبِرةً وإنّ الآخرةَ قد ارتحلَتْ مُقْبِلةٍ، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغدا حسابٌ ولا عمل.

* وقال أيضاً:

«إن من حقِّ العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب، وأن لا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سراً، ولا تغتابنَّ عنده أحداً، ولا تطلبنَّ عشرته، وإن زلَّ قبلت معذرته، وعليك أن توقِّرَه وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت إلى خدمته»[2].

٦ ـ فِقَرٌ من كلامه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

* قيمة كل امرئ ما يحسن[3].

* محبةُ العلماء دينٌ يُدانُ به[4].

* البشاشة فخ المودة. والصبر قبر المغبون. والغالبُ بالظلم مغلوب.

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣٥٢/٢.

(٢) من أفانين الأدب ١٢٣.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٨٣/١.

(٤) لسان العرب مادة (دين).

والحجَر المغصوبُ بالدار رهن بخرابها. وما ظفرَ مَن ظفرت به الأيام، فسالِمْ تَسْلَم.

❋ رَأْيُ الشيخ خيرٌ من مَشْهَدِ الغلام.

❋ الناس أعداءُ ما جهلوا.

❋ الدنيا بالأموال، والآخرة بالأعمال.

❋ لا تخافَنّ إلاَّ ذنبك، ولا ترجُوَنَّ إلاَّ ربّك.

❋ وجِّهُوا آمالكم إلى مَنْ تحبّه قُلوبُكم.

❋ الناسُ من خَوْف الذلّ في الذلّ.

❋ مَنْ أَيْقَنَ بالخُلْفِ جاد بالعطية.

❋ بقيَّةُ السيفِ أنْمَى عَدَداً، وأنْجَبُ ولداً

❋ إنَ من السكوت ما هو أَبْلَغُ من الجواب.

❋ الصبرُ مَطِيَّة لا تَكْبُو، وسَيْفٌ لا يَنْبُو.

❋ خَيْرُ المالِ ما أغنَاك، وخيرٌ منه ما كَفاك، وخير إخوانك مَنْ واساك، وخيرٌ منه من كفاك شرّه[1].

❋ إذا قدرت على عدوّك فاجْعَلِ العفوَ عنه شكراً للقُدْرة عليه[2].

❋ روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان.

---

(١) الإعجاز والإيجاز ٣٦ ـ ٣٧، وقد ورد كثير من هذه الكلمات الجامعة في كتب الأمثال، انظر مجمع الأمثال ٦٩٨/٣ ـ ٧٠٠.

(٢) زهر الآداب ٧٧/١.

* إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ: فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ[1].

تعليق:

جاء في البيان والتبيين: وقال عليٌّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **قيمة كلِّ امرئٍ ما يُحسِن**، فلو لم نَقف من هذا الكتابِ إلاّ على هذه الكلمة لوجدْناها شافيةً كافية، ومجزئة مغْنِية؛ بل لوَجدناها فاضلةً عن الكفاية، وغيرَ مقصِّرة عن الغاية.

وأحسنُ الكلام ما كان قليلهُ يُغْنيك عن كثيرِه، ومعناه في ظاهر لفظِه، وكان الله عزّ وجلَّ قد ألبسَه من الجَلالة، وغَشّاه من نُور الحكمة على حَسَب نيّة صاحبه وتقوَى قائِله.

فإذا كان المعنى شريفاً واللفظُ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه، ومنزَّهاً عن الاختلالِ مصوناً عن التكلُّف، صنَعَ في القُلوب صنيعَ الغَيث في التُّربة الكريمة.

ومتى فَصَلت الكلمةُ على هذه الشّرِيطة، ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفة، أصَحبَها اللهُ من التوفيق ومَنَحَها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة، ولا يذهَل عن فهمها معه عقولُ الجَهَلة.

وقد قال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعتْ في القلب، وإذا خرجت من اللِّسان لم تجاوِز الآذان[2].

٧ ـ ومن حكمه أيضاً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

أعْجَبُ ما في الإنسان قَلْبُه، وله مواد من الحكمة، وأضْدَاد من خِلاَفها؛

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١٠٠/٢)

(٢) البيان والتبين للجاحظ ٨٣/١.

فإنْ سَنَح له الرجاءُ أذَلَّه الطمع، وإن هاجه الطمَعُ أهلكه الحِرص، وإنْ مَلَكه اليَأْسُ قتَله الأسَف، وإن عرض له الغضب اشتدَ به الغَيْظ، وإنْ أُسعد بالرضا نِسِي التحفظ، وإن أتاه الخوفُ شغلَه الحذَر، وإن اتسَع له الأمن استلبته الغِرَّة، وإن أصابته مصيبة فَضَحه الجَزَع، وإن استفاد مالاً أطْغاه الغِنَى، وإن عضتْه فاقة بلغ به البلاء، وإن جَهد به الجوعُ قعد به الضعْف، وإن أفرط في الشبع كَظَّته البِطْنَة[١]، فكل تقصيرٍ به مضِرّ، وكلّ إفراطٍ له قَاتِل[٢].

٨ ـ ومن شعره:

لِمَـنْ رايـةٌ سَـوْداءُ يَخْفـق ظِلُّهـا ... إذا قيـل قَـدِّمْها حُضَـيْنُ تقـدَّما

فيوردهـا فـي الصَّـف حتـى تردّهـا ... حياضُ المنايا تقطُر الموتَ والـدَّما

جـزى الله قومـاً قـاتلوا فـي لقـائهم ... لـدى الـروعِ قومـاً مـا أعـزَّ وأكْرَمـا

وأطيـب أخْبـاراً وأفْضَـلَ شِـيمةً ... إذا كـان أصـواتُ الرجـال تَغَمْغُمـا

حضين الذي ذكره هو: أبو ساسَان الحضينُ بنُ المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي، وكان صاحب رايَتِه يومَ صِفّين.

ويروى عنه أنه قال بعد وفاة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

أرى عِلَـلَ الـدنيا علـيَّ كثيـرةً ... وصـاحِبُها حتـى الممـاتِ عليـلُ

لكـلِّ اجتمـاعٍ مـن خليلـين فُرْقَـةٌ ... وإن الـذي دُون الممـاتِ قليـلُ

وإنْ افتقـادي فاطمـاً بعـد أحمـدٍ ... دليـل علـى ألاَ يـدومَ خَليـلُ[٣]

(١) أي امتلأ بطنه طعاما حتى لا يكاد يطيق النفس.

(٢) الإعجاز والإيجاز ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) زهر الآداب ٦٩/١.



وقال أيضاً:

ولست بإمَّعَة في الرجال ... أسائل عن ذا وذا ما الخبرْ

ولكنني ذَرِبُ الأصغرين[1] ... أبيِّن مَعْ ما مضى ما غَبَرْ[2]

(١) لعله يريد لسانه وقلبه، فذرابة اللسان فصاحته، وذرابة القلب قوته ومضاؤه.

(٢) زهر الآداب ١/٧٣.

الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

روى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إن ابني هذا سيّد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين][1].

وَكَانَ الحسن بْن علي يكنى أبا مُحَمَّد، وَكَانَ يشبه النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعلى رأسه إِلَى سرته، وَكَانَ الْحُسَيْن يشبه النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سرته إِلَى قدميه. ويقال: إنه كانت فِيهِ مشابه من النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وجهه إِلا أن الحسن كَانَ أشبه النَّاس فِيهِ وجها.

وكانت فاطمة عَلَيْهَا السلام إذا زفنته ـ أي رقصته ـ قَالَت:

وابــــأبي شــــبه النَّبِــــيّ غيــــر شــــبيه بعلــــي[2]

١ ـ فخر فريد:

قَالَ سعيد بْنِ عَبْدِ العزيز التنوخي، عَن الزُّهْرِيّ: تفاخرت قريش عند مُعَاوِيَة، وعنده الحسن وهو ساكت، فقال معاوية: ما يمنعك يا أبا محمد من الكلام؟ فو الله مَا أنت بكليل اللسان وَلا مأشوب الحسب فَقَالَ:

والله مَا ذكروا مكرمة وَلا فضيلة إلا ولي محضها ولبابها، ثم قال:

فـيم الكـلام وقـد سـبقت مبـرزًا سبق الجياد من المدى المتنفس[3]

(١) البخاري (٢٧٠٤).

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٦/٣).

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري (١٤/٣).

٢ ـ رسالة رائعة:

ـ قال الجاحظ حدَّثني سليمانُ بن أحمد الخَرْشَني، قال: حدثني عبد الله بن محمد بن حبيب، قال: طلب زيادٌ رجلاً كان في الأمان الذي سأله الحسن بن علي لأصحابه، فكتب فيه الحسنُ إلى زياد:

من الحسن بن علي إلى زياد، أمَّا بعد فقد علمتَ ما كُنّا أخذْنا لأصحابنا، وقد ذَكَرَ لي فلانٌ أنك عَرَضْتَ له، فأُحِبُّ أن لا تعرض له إلاّ بخير.

فلمَّا أتاه الكتابُ ولم ينسبه الحسنُ إلى أبي سفيان غَضِب فكتب:

من زيادِ بن أبي سفيانَ إلى الحسن، أمَّا بعد فقد أتاني كتابك في فاسقٍ يؤويه الفُسَّاق من شيعتك وشيعة أبيك، وايمُ الله لأَطْلُبَنَّهم ولو بين جِلدِك ولحمك، وإنّ أحبّ الناس إليّ لحماً أنْ آكُلَهُ للحمٌ أنت منه.

فلما وصل الكتابُ إلى الحسنِ وجّه به إلى معاوية، فلما قرأه معاويةٌ غضب وكتب:

مِن معاويةَ بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان، أمَّا بعدُ فإنّ لك رأيين: رأياً من أبي سفيان ورأياً من سُمَيَّةَ، فأمَّا رأيك من أبي سفيان فحِلْم وحَزْم، وأمّا رأيك من سُميَّة فكما يكون رأيُ مِثلها، وقد كتَبَ إليَّ الحسنُ بنُ عليٍّ أنّك عَرَضت لصاحبه، فلا تَعْرضنَّ له؛ فإنِّي لم أجعل لك إليه سبيلاً، وإن الحسنَ بن عليٍّ ممن لا يُرْمى به الرّجَوَان[١]، **والعجَب مِن كتابك إليه لا**

(١) الرَّجوان تثنية الرجا وهو ناحية كل شيء، وخص بعضهم به ناحية البئر، وقولهم رمي=

تنسُبُه إلى أبيه، أفإلى أمّه وكَلْتَه، وهو ابن فاطمةَ بنتِ محمّد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالآن حينَ اخْترتَ له، والسّلام[1].

٣ ـ حكم ماتعة:

المدائني عَن أَبِي أيوب القرشي عَنْ أَبِيهِ: أن الحسن بْن علي أعطى شاعرًا مالا فَقَالَ لَهُ رجل: سبحان الله أتعطي شاعرًا يعصي الرحمن ويقول البهتان؟ فَقَالَ:

إن خير مَا بذلت من مالك مَا وقيت بِهِ عرضك، وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشرّ[2].

٤ ـ فِقَر من قصار كلامه:

❊ من استتر عن الطلب بالحياء لبس للجهل سرباله، فقطعوا سرابيل الحياء، فإنه من رقَّ وجهه رقَّ علمه.

❊ **لِسان العاقل مِن وراء قلبِه**، فإذا أراد الكلامَ تفكَّر، فإن كان له قالَ، وإن كان عليه سكَت، **وقَلْبُ الجاهل من وراء لسانِه**، فإنْ همَّ بالكلام تكلَّم به له أو عليه[3].

❊ إن هذه القلوب تحيى وتموت فإذا حييت فاحملوها على النافلة، وإذا

= به الرَّجَوان: استهين به فكأنه رمي به هنالك، أرادوا أنه طرح في المهالك، قال الشاعر:

فــلا يُرمــى بــي الرَّجَــوان إنــي ... أقــل القــوم مَــن يغنــي مكــاني

(١) البيان والتبيين ٢/٩٩.

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري (٣/٢٣).

(٣) البيان والتبيين ١/١٧٢.

ماتت فاحملوها على الفريضة.

❋ **الطَّعَامُ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يُقْسَمَ عَلَيْهِ إِذَا دُعِيَ الرَّجُلُ إِلَى أَكْلِهِ فَلَمْ يَأْكُلْ**(١).

❋ روي أن رجلاً جاء إلى الحسن وعنده رجل قد رزق مولوداً فقال: يُهْنِك الفارس. فقال له الحسن: وما يدريك أفارس هو أم حمار، فقال: كيف نقول؟

فقال: قل **بورك لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشده ورزقت بعده**(٢).

❋ أكيَس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور(٣).

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (٣/٢٥).

(٢) فص الخواتم لابن طولون ص٥٠، ولعلها للحسن البصري.

(٣) الإعجاز والإيجاز ص٤٣.

الحسين بن علي رضي الله عنهما

كَانَ الْحُسَيْن يكنى أبا عَبْد اللهِ، وَكَانَ شجاعا سخيا. وَكَانَ يشبّه بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن الحسن كَانَ أشبه وجها بوجه رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم منه. ويقال: إنه كَانَ يشبه رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم من سرته إِلَى قدميه[١].

١ ـ من خطبه:

خطب الحسين بنُ علي، رضوان الله عليهما، غداةَ اليوم الذي استُشهِدَ فيه، فحمدَ الله تعالى وأثنى عليه؛ ثم قال:

يا عبادَ اللهِ، اتقُوا اللهَ، وكونوا من الدنيا على حَذَر؛ فإنّ الدنيا لو بَقِيَتْ على أحد أو بقي عليها أحد لكانت الأنبياءُ أحق بالبقاء، وأوْلى بالرَضاء، وأرْضَى بالقضاء.

غيرَ أنَّ الله تعالى خَلَق الدنيا للفناء، فجديدُهَا بالٍ، ونعيمُها مُضْمَحِلٌّ، وسرورُها مُكْفَهِرٌّ، مَنْزِلُ تَلْعة[٢]، ودارُ قُلْعة[٣]؛ فتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزادِ التقوى، واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحون[٤].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري (١٤٢/٣).

(٢) التلعة مسيل الماء لأن من نزل التلعة فهو على خطر إن جاء السيل جرف به. اللسان (تلع)

(٣) منزل قُلْعة ليس بمستوطن، ومنزلنا منزل قُلعة أي لا نملكه، وفي حديث علي كرم الله وجهه: أحذركم الدنيا فإنها منزل قلعة، أي تحول وارتحال. اللسان (قلع).

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب ٩٢/١.

٢ ـ من رسائله:

كان لمعاوية بن أبي سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتبُ إليه بما يكونُ من أُمور الناس وقريش، فكتب إليه: إنَّ الحسين بنَ علي أعتَقَ جاريةً له وتزوَّجها؛ فكتبَ معاويةُ إلى الحسين:

مِنْ أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن عليٍّ. أمَا بعد، فإنه بلغني أنك تزوَجْتَ جاريتَكَ، وتركْتَ أكْفاءَكَ من قريش، ممَنْ تسْتَنْجُبُهُ للولد، وتمجد به في الصِّهْر، فلا لنَفْسِكَ نظَرْتَ، ولا لِوَلَدِكَ انتقَيتَ.

فكتب إليه الحُسَيْن بن علي:

أمَا بعد، فقد بلغني كتابُك، وتَعْيِيرُكَ إياي بأني تزوَجْتُ مولاتي، وتركتُ أكْفائي مِنْ قُرَيش، فليسَ فَوْقَ رسول الله منتَهًى في شرَف، ولا غاية في نسب؛ وإنما كانت مِلْكَ يميني، خرجَتْ عن يدي بأمرٍ التمستُ فيه ثوابَ الله تعالى، ثم ارتجعتُها على سنةِ نبيه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخسيسة، ووضع عنَّا به النقيصةَ؛ فلا لَوْمَ على امرئ مسلم إلاَ في أمرِ مأثم، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية.

والحسين ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ هو القائل: من الوافر:

لَعَمْرُكَ إنَّني لأُحِب دَاراً ... تَحُلُّ بها سُكَيْنَةُ وَالرَّبَابُ
أُحِبهما وأَبْذُل كل مَالي ... وليس للائمٍ عِنْدِي عِتَابُ

سكينة: ابنته، والرباب: أمُها، وهي بنت امرئ القيس بن الجرول الكلبية[1].

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٩٢ ـ ٩٣.

٣ ـ من كلامه:

❊ روي عن الحسين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ شاعراً مدحه فأجْزَلَ ثوابَه، فليمَ على ذلك، فقال:

أَتَراني خِفْتُ أن يقولَ: لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ابن علي بن أبي طالب! ولكني خِفْتُ أن يقول: لست كرسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا كعليّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فيُصَدَّقَ، ويُحْمَلَ عنه، ويبقى مُخَلَّداً في الكتب، محفوظاً على ألسنة الرُواة.

فقال الشاعر: أنت والله يا ابْنَ رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أعرفُ بالمدح والذمِّ مني[1].

ومن قصار كلماته الرائعة:

❊ الناس عبيد المال، والدين لَعَق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قل الديانون[2].



(١) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٩٠.

(٢) ربيع الأبرار ١/١٦٤.



محمد بن الحنفية رضي الله عنه

* لما تُوفِّي الحسن أدخله قَبْرَه الحسينُ ومحمدُ بن الحنفيَّة وعبدُ الله بن عباس رضي الله عنهم، ثم وقف محمدٌ على قبره وقد اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاه بالدموع، وقال:

رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد! فلئن عَزَتْ حياتك، لقد هَدَتْ وفاتُكَ، ولَنعْمَ الرُّوحُ، رُوحٌ تضمَّنَه بَدَنُكَ؛ ولنعم الجسَدُ، جسَدٌ تضمَنَه كَفَنُك، ولنعْمَ الكَفَنُ، كَفَنٌ تضمّنه لَحْدُكَ.

وكيف لا تكون كذلك وأنت سليلُ الهدى، وخامِسُ أصحابِ الكِسَاء، وخَلَفُ أَهْلِ التقى؟

جَدُّك النبيّ المُصْطَفى، وأبوك عليّ المرتضَى، وأُمُّك فاطمةُ الزهراء، وعمّكَ جعفر الطيار في جنَّة المَأْوى، وغَذَتْكَ أَكُفُّ الحقّ، وَرُبِّيت في حِجْرِ الإسلام، ورضعت ثَدْيَ الإيمان، فطِبْتَ حيًّا وميتاً.

فلئن كانت الأَنْفُس غيرَ طَيبةٍ لفراقك؛ إنها غيرُ شاكَّةٍ أنْ قد خِيرَ لَك، وإنك وأَخاك لَسَيدَا شَبَابِ أهل الجنة، فعليكَ يا أبا محمد منا السلام[1].

ومن قصار كلماته:

* من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا.

(١) زهر الآداب ١/٩٠.

❖ بين الحسن بن علي وأخيه محمد بن الحنفية

كتب محمد بن الحنفية إلى أخيه إثر جفاء وقع بينهما:

«أما بعد فإن أبي وأباك علي بن أبي طالب لا تفضلني فيه ولا أفضلك، وأمي امرأة من بني حنيفة وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلو مُلئت الأرض بمثل أمي لكانت أمُّك خيراً منها فإذا قرأت كتابي هذا فاقدَم حتى تترضاني فإنك أحقُّ بالفضل مني»[1].

---

(١) زهر الآداب ١/٩١ ـ ٩٢.

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

١ ـ جواب بليغ

جاء في البيان والتبيين:

قيل لعبد الله بن عبّاس: أنَّى لك هذا العِلمُ؟ قال:

قلبٌ عَقُولٌ، ولسانٌ سَؤُول.

وقد روَوْا هذا الكلامَ عَن دَغفَل بن حنظلةَ العلاّمة وعبدُ الله أوْلَى به منه، والدّليل على ذلك قولُ الحسن: إنّ أوّلَ مَن عرَّف بالبَصرة ابنُ عباسٍ، صِعد المنبر فقرأ سورةَ البقرة، ففسَّرَها حرفاً حرفاً، وكان مِثَجّاً يسيل غَرْباً، المِثَجُّ: السائل الكثير، وهو من الثَّجَّاج، والغَرْب، هاهنا: الدَّوَام، هشام بن حسّانَ وغيرُه، قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد، إنّ قَوماً زعمُوا أنّك تذمُّ ابنَ عباسٍ، قالوا: فبكى حتَّى اخضلَّت لحيتُه، ثم قال: إنّ ابنَ عباسٍ كان من الإسلام بمكان، إنّ ابن عبّاس كان من القرآنِ بمكان، وكان والله له لسانٌ سَؤُولٌ، وقلب عَقُول، وكان والله مِثَجّاً يسيل غَرْباً[(١)].

تعليق:

ما أجمل جواب ابن عباس هذا، إنه منهج متكامل في طلب العلم، وفي أسلوب التعلم الذاتي، ذاك التعلم الذي يعتمد على النفس في بناء المعرفة،

(١) البيان والتبيين ١/٨٤ ـ ٨٥.

ويتخذ من السؤال مطيّة للوصول إلى الحقيقة والعلم، فبلسانه المتسائل دوما، وبعقله الفاحص أبدا، ثم بتواضعه ودماثة خلقه صار حبر هذه الأمة وترجمان القرآن.

وقد ورد في رواية أخرى لهذه الكلمة أنه أتبعها بقوله: «وكنت كلما لقيت عالما أخذت منه وأعطيته» وفيها دلالة على أمور ثلاثة:

الأول: حرصه على الفائدة أنى كانت، وعدم استنكافه عن أخذها برغم مكانته العلمية.

والثاني: تحقيقه لمقولة طلب العلم من المهد إلى اللحد.

والثالث: سخاؤه في العلم وبذله لكل من لقيه، فهو لا يكتفي بالأخذ، بل يعطي بقدر ما يأخذ، ويمنح بقدر ما يوهب. وتلك لعمري مزية مكنت العلم من صدره وقلبه، فالعلم أخذ وعطاء، وبقدر ما ينفق العالم من علمه يبارك له فيه ويثبت في قلبه، لأن العلم يزكو بالإنفاق، وينمو بالمذاكرة والمدارسة.

فـــأدم للعلـــم مـــذاكرة فحيـــاة العلـــم مدارســـته

وتأمل أخيرا بنية هذا الجواب اللفظية تجد أنه تألف من جملتين قصيرتين اقتصرتا على مبتدأ وخبر في إيجاز رائع بديع، أما المبتدأ فجاء نكرة سوّغ الابتداء بها شبهها بالغرائب والخوارق من جهة، والعطف عليها من جهة أخرى، على حد قولهم بقرة تكلمت، وشجرة سجدت(١).

وقد وشِّحتا بأسلوب السجع الجميل الذي جاء خفيفا طريفا، لا تكلف

(١) انظر نحو العربية ٢/٢٩.

فيه ولا ثقل في تكرر حروفه، وكأنه قافية رشيقة في بيت زانه التصريع.

٢ ـ ارتجال بديع:

روى الزبير بن بكار قال: استنشد عبد الله بن عباس ـ رضوان الله عليه ـ عمر بن أبي ربيعة فأنشده: **تشطُّ غداً دار جيراننا**

فبدره ابن عباسٍ، فقال: **ولَلدارُ بعد غدٍ أبعدُ**

فقال له عمر: كذلك قلت، أصلحك الله! أفسمعته؟ قال: لا، ولكن كذلك ينبغي أن يكون[١].

٣ ـ مشاهد من فصاحته:

أ ـ قال عبد الله بن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حين دلّي زيد بن ثابتٍ في القبر، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من سَرَّه أن يرى كيفَ ذهابُ العلم فلينظر، فهكذا ذهابه[٢].

ب ـ دخل ابن عباس مجلساً فيه الأنصار فقاموا له، فقال:

بالإيواء والنصر إلا جلستم، يريد قوله تعالى: والذين آووا ونصروا[٣].

ج ـ واستشاره عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تولية حمص رجلاً فقال:

لا يصلح إلا أن يكون رجلاً منك، قال: فُكنْهُ، قال: لا تنتفع بي. قال: لم؟ قال: لسوء ظني في سوء ظنك بي[٤].

---

(١) بدائع البدائه ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٥٧.

(٣) ربيع الأبرار ـ (ج ١/ص ١٩٠).

(٤) مجمع الأمثال ٢/٤٥٥.

د ـ وفي ربيع الأبرار:

ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

أكرم الناس عليَّ جليسي، وإن الذباب يقع على جليسي فيؤذيني. وإني لأستحي من الرجل يطأ بساطي ثلاثاً فلا يُرى عليه أثرٌ من برّي.

هـ ـ من كتاب الكامل:

قال أبو العباس: قال ابن العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

لا يزهدَنَّكَ في المعروف كفرُ من كفره، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه[1].

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: العلم أكثر من أن يؤتى على آخره، فخذوا من كل شيءٍ أحسنه.

و ـ وتكلم عنده رجل فخلط فقال: بكلام مثلك رزق الصمت المحبة.

٤ ـ فِقَر من كلامه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

* لولا الوَسْواسُ، ما باليَتُ ألاّ أكلِّم الناس[2].

* الهوى إله معبود.

* الرخصة من الله صدقة. فلا تردوا صدقته.

* لكل داخل دهشة. فأبدؤوه بالتحية[1].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ١/١٧٩.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٦٤.

وفي مجمع الأمثال:

❊ صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكأ.

❊ الحرمان خير من الامتنان.

❊ ملاك أمركم الدين، وزينتكم العلم، وحصون أعراضكم الأدب، وعزكم الحلم، وحليتكم الوفاء.

❊ القرابة تقطع، والمعروف يكفر ولم ير كالمودة.

❊ لا تمار سفيهاً ولا حليماً، فإن السفيه يؤذيك والحليم يقليك.

❊ اعمل عمل من يعلم أنه مجزي بالحسنات، مأخوذ بالسيئات(٢).

(١) الإعجاز والإيجاز ٤٧.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٥٥.



۞ فضلها ومكانتها:

جاء في سير أعلام النبلاء:

إِسْمَاعِيْلُ بنُ جَعْفَرٍ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللهِ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، سَمِعَ أَنساً يَقُوْلُ:

قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: (فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ طُرُقٍ، عَنْ أَبِي طُوَالَةَ[1].

۞ فصاحتها:

قال موسى بن طلحة بن عبيد الله: **ما رأيت أحدا أفصح من عائشة**[2].

وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم، ولا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة.

وقال أيضا: ما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخمَ ولا أحسنَ منه من في عائشة[3].

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/١٤٤).

(٢) رواه الترمذي في كتاب المناقب: ٣٨٨٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ٣/٩٧.

وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت بابا فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت بابا فأرادت إغلاقه إلا أغلقته[1].

١ ـ حديث الإفك:

لعل من خير ما يجلو فصاحة أم المؤمنين السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حديث الإفك، فقد تحدثت فيه عن محنتها، وصورت دقائق ما أصابها من أحداث، وما ألم بها من أحزان، بأوجز لفظ، وأفصح عبارة، وأحلى بيان، فأجادت وأحسنت كل الإحسان.

وسأورد هذا الحديث كما جاء في صحيح البخاري (ج١٣/ص ٤٤) وأذيله بشروح مقبوسة من فتح الباري لابن حجر (ج١٣/ص٢٦٠ وما بعدها).

٣٨٢٦ ـ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ اللهِ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ صَالِحٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا.

وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا وَبَعْضُهُمْ كَانَ أَوْعَى لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ وَأَثْبَتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ.

قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ

(١) المستطرف في كل فن مستظرف (ص: ٥٢).

أَزْوَاجِهِ، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا(١) فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي(٢) وَأُنْزَلُ فِيهِ.

فَسِرْنَا، حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ(٣) لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ(٤) قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ.

قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي(٥) فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَّلُوهُ

---

(١) هِيَ غَزْوَة بَنِي الْمُصْطَلِق، وَصَرَّحَ بِذَلِكَ مُحَمَّد بْن إِسْحَاق فِي رِوَايَته.

(٢) الْهَوْدَج بِفَتْحِ الْهَاء وَالدَّال بَيْنَهُمَا وَاو سَاكِنَة وَآخِرُهُ جِيمٌ: مَحْمِل لَهُ قُبَّة تُسْتَر بِالثِّيَابِ وَنَحْوه، يُوضَع عَنْ ظَهْر الْبَعِير يَرْكَب عَلَيْهِ النِّسَاء لِيَكُونَ أَسْتَر لَهُنَّ. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة أَبِي أُوَيْس بِلَفْظِ «الْمِحَفَّة».

(٣) قَوْله: (آذَنَ) بِالْمَدِّ وَالتَّخْفِيف وَبِغَيْرِ مَدّ وَالتَّشْدِيد كِلَاهُمَا بِمَعْنَى أَعْلَمَ بِالرَّحِيلِ، وَفِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق «فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَبَاتَ بِهِ بَعْض اللَّيْل ثُمَّ آذَنَ بِالرَّحِيلِ».

(٤) قَوْله: (مِنْ جَزْع) بِفَتْحِ الْجِيم وَسُكُون الزَّاي بَعْدَهَا مُهْمَلَة: خَرَز مَعْرُوف فِي سَوَاده بَيَاض كَالْعُرُوقِ. فَأَمَّا ظَفَار بِفَتْحِ الظَّاء الْمُعْجَمَة ثُمَّ فَاء بَعْدَهَا رَاء مَبْنِيَّة عَلَى الْكَسْر فَهِيَ مَدِينَة بِالْيَمَنِ.

(٥) قَوْله: (يَرْحَلُونَ) بِفَتْحِ أَوَّله وَالتَّخْفِيف، رَحَلْت الْبَعِير إِذَا شَدَدْت عَلَيْهِ الرَّحْل. وَوَقَعَ فِي رِوَايَة أَبِي ذَرّ هُنَا بِالتَّشْدِيدِ فِي هَذَا وَفِي «فَرَحَلُوهُ».

عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ[1] إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ[2] مِنْ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا.

وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ.

وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ[3]، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي[4]، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي[5]، ووَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ.

وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا[6]، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا،

(١) مَعْنَى قَوْلهَا: «لَمْ يَغْشَهُنَّ» أَيْ لَمْ يَكْثُر عَلَيْهِنَّ فَيَرْكَب بَعْضُهُ بَعْضًا، وَفِي رِوَايَة مَعْمَر «لَمْ يُهَبِّلْهُنَّ» وَضَبَطَهُ اِبْن الْخَشَّاب فِيمَا حَكَاهُ اِبْن الْجَوْزِيّ بِفَتْحِ أَوَّله وَسُكُون الْهَاء وَكَسْر الْمُوَحَّدَة يُقَال هَبَّلَهُ اللَّحْم وَأَهْبَلَهُ إِذَا أَثْقَلَهُ، وَأَصْبَحَ فُلَان مُهَبَّلًا أَيْ كَثِير اللَّحْم أَوْ وَارِمَ الْوَجْه.

(٢) قَوْله: (الْعُلْقَة) بِضَمِّ الْعَيْن الْمُهْمَلَة وَسُكُون اللَّام ثُمَّ قَاف أَيْ الْقَلِيل

(٣) قَوْله: (وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَاب) أَيْ قَبْلَ نُزُول آيَة الْحِجَاب، وَهَذَا يَدُلّ عَلَى قِدَم إِسْلَام صَفْوَان

(٤) قَوْله: (فَاسْتَيْقَظْت بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي) أَيْ بِقَوْلِهِ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

(٥) قَوْله: (فَخَمَّرْت) أَيْ غَطَّيْت (وَجْهِي بِجِلْبَابِي) أَيْ الثَّوْب الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا.

(٦) قَوْله: (فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا) أَيْ لِيَكُونَ أَسْهَلَ لِرُكُوبِهَا وَلَا يَحْتَاج إِلَى مَسّهَا عِنْدَ رُكُوبِهَا.

فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوغِرِينَ(١) فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ(٢) وَهُمْ نُزُولٌ.

قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ(٣)، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ(٤) عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ(٥). وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى. وَإِنَّ كِبْرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

---

(١) قَوْله: (بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ) بِضَمِّ الْمِيم وَكَسْر الْغَيْن الْمُعْجَمَة وَالرَّاء الْمُهْمَلَة أَيْ نَازِلِينَ فِي وَقْت الْوَغْرَة بِفَتْحِ الْوَاو وَسُكُون الْغَيْن وَهِيَ شِدَّة الْحَرّ لَمَّا تَكُون الشَّمْس فِي كَبِدِ السَّمَاء، وَمِنْهُ أَخَذَ وَغْر الصَّدْر وَهُوَ تَوَقُّده مِنْ الْغَيْظ بِالْحِقْدِ وَأَوْغَرَ فُلَان إِذَا دَخَلَ فِي ذَلِكَ الْوَقْت كَأَصْبَحَ وَأَمْسَى.

(٢) قَوْله: (فِي نَحْر الظَّهِيرَة) تَأْكِيد لِقَوْلِهِ: مُوغِرِينَ، فَإِنَّ نَحْر الظَّهِيرَة أَوَّلهَا وَهُوَ وَقْت شِدَّة الْحَرّ، وَنَحْر كُلّ شَيْء أَوَّله كَأَنَّ الشَّمْس لَمَّا بَلَغَتْ غَايَتهَا فِي الِارْتِفَاع كَأَنَّهَا وَصَلَتْ إِلَى النَّحْر الَّذِي هُوَ أَعْلَى الصَّدْر

(٣) قَوْله: (فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ) زَادَ صَالِح فِي رِوَايَته «فِي شَأْنِي «وَفِي رِوَايَة أَبِي أُوَيْس» فَهُنَالِكَ قَالَ فِي وَفِيهِ أَهْل الْإِفْك مَا قَالُوا فَأَبْهَمَتْ الْقَائِل وَمَا قَالَ وَأَشَارَتْ بِذَلِكَ إِلَى الَّذِينَ تكَلَّمُوا بِالْإِفْكِ وَخَاضُوا فِي ذَلِكَ.

(٤) قَوْله: (وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْره) أَيْ تَصَدَّى لِذَلِكَ وَتَقَلَّدَهُ، وَكَبَّرَهُ أَيْ كَبَّرَ الْإِفْك وَكِبْر الشَّيْء مُعْظَمه وَهُوَ قِرَاءَة الْجُمْهُور بِكَسْرِ الْكَاف، وَقَرَأَ حُمَيْدٌ الْأَعْرَج بِضَمِّهَا قَالَ الْفَرَّاء: وَهِيَ قِرَاءَة جَيِّدَة فِي الْعَرَبِيَّة، وَقِيلَ: الْمَعْنَى الَّذِي تَوَلَّى إِثْمه.

(٥) وَيَسْتَوْشِيه بِمُهْمَلَةٍ ثُمَّ مُعْجَمَة، أَيْ يَسْتَخْرِجهُ بِالْبَحْثِ عَنْهُ وَالتَّفْتِيش.



قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ وَتَقُولُ إِنَّهُ الَّذِي قَالَ:

فَـــإِنَّ أَبِـــي وَوَالِـــدَهُ وَعِرْضِـــي لِعِـــرْضِ مُحَمَّـــدٍ مِـــنْكُمْ وِقَـــاءُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا[١]، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ[٢] فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي[٣] فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ كَيْفَ تِيكُمْ[٤]، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلَا أَشْعُرُ بِالشَّرِّ.

حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ[٥] فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ[٦] وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا[٧] وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ

(١) وَفِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق «وَقَدْ اِنْتَهَى الْحَدِيث إِلَى رَسُول الله: وَإِلَى أَبَوَيَّ وَلَا يَذْكُرُونَ لِي شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ» وَفِيهَا أَنَّهَا مَرِضَتْ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً

(٢) وَقَوْله: «وَالنَّاس يُفِيضُونَ» بِضَمِّ أَوَّله أَيْ يَخُوضُونَ، مِنْ أَفَاضَ فِي قَوْل إِذَا أَكْثَرَ مِنْهُ.

(٣) قَوْله: (وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي) بِفَتْحِ أَوَّله مِنْ الرَّيْب وَيَجُوز الضَّمّ مِنْ الرُّبَاعِيّ يُقَال رَابَهُ وَأَرَابَهُ.

(٤) قَوْله: (إِنَّمَا يَدْخُل فَيُسَلِّم ثُمَّ يَقُول كَيْفَ تِيكُمْ) وَفِي رِوَايَة اِبْن إِسْحَاق «فَكَانَ إِذَا دَخَلَ قَالَ لِأُمِّي وَهِيَ تُمَرِّضُنِي: كَيْفَ تِيكُمْ» بِالْمُثَنَّاةِ الْمَكْسُورَة وَهِيَ لِلْمُؤَنَّثِ مِثْل ذَاكُمْ لِلْمُذَكَّرِ، وَاسْتَدَلَّتْ عَائِشَة بِهَذِهِ الْحَالَة عَلَى أَنَّهَا اِسْتَشْعَرَتْ مِنْهُ بَعْض جَفَاء

(٥) قَوْله: (نَقَهْت) بِفَتْحِ الْقَاف وَقَدْ تُكْسَر وَالْأَوَّل أَشْهَر، وَالنَّاقِه بِكَسْرِ الْقَاف الَّذِي أَفَاقَ مِنْ مَرَضه وَلَمْ تَتَكَامَل صِحَّته.

(٦) الْمَنَاصِع صَعِيد أَفْيَح خَارِجَ الْمَدِينَة.

(٧) قَوْله: (مُتَبَرَّزنَا) بِفَتْحِ الرَّاء قَبْلَ الزَّاي مَوْضِع التَّبَرُّز وَهُوَ الْخُرُوج إِلَى الْبِرَاز وَهُوَ الْفَضَاء، وَكُلّه كِنَايَة عَنْ الْخُرُوج إِلَى قَضَاء الْحَاجَة.

بُيُوتِنَا. قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قِبَلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ[(١)]، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ[(٢)] وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ!

قَالَتْ: وَقُلْتُ مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ.

قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ؟ فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا. قَالَتْ فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ

---

(١) قَوْله: (فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَح) بِفَتْحِ الْمُثَنَّاة وَكَسْر الْعَيْن الْمُهْمَلَة وَبِفَتْحِهَا أَيْضًا بَعْدَهَا سِين مُهْمَلَة أَيْ كُبَّ لِوَجْهِهِ أَوْ هَلَكَ وَلَزِمَهُ الشَّرّ أَوْ بَعُدَ

(٢) قَوْله: (قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ) أَيْ حَرْف نِدَاء لِلْبَعِيدِ وَقَدْ يُسْتَعْمَل لِلْقَرِيبِ حَيْثُ يَنْزِل مَنْزِلَة الْبَعِيد، وَالنُّكْتَة فِيهِ هُنَا أَنَّ أُمّ مِسْطَح نَسَبَتْ عَائِشَة إِلَى الْغَفْلَة عَمَّا قِيلَ فِيهَا لِإِنْكَارِهَا سَبَّ مِسْطَح فَخَاطَبَتْهَا خِطَاب الْبَعِيد، وَهَنْتَاهْ بِفَتْحِ الْهَاء وَسُكُون النُّون وَقَدْ تُفْتَح بَعْدَهَا مُثَنَّاة وَآخِرُهُ هَاء سَاكِنَة وَقَدْ تُضَمّ أَيْ هَذِهِ وَقِيلَ اِمْرَأَة وَقِيلَ بُلْهَى، كَأَنَّهَا نَسَبَتْهَا إِلَى قِلَّة الْمَعْرِفَة بِمَكَائِدِ النَّاس. وَهَذِهِ اللَّفْظَة تَخْتَصّ بِالنِّدَاءِ وَهِيَ عِبَارَة عَنْ كُلّ نَكِرَة، وَإِذَا خُوطِبَ الْمُذَكَّر قِيلَ يَا هَنَة، وَقَدْ تُشْبَع النُّون فَيُقَال يَا هَنَاه، وَحَكَى بَعْضهمْ تَشْدِيد النُّون فِيهِ وَأَنْكَرَهُ الْأَزْهَرِيّ.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً(١) عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ(٢) عَلَيْهَا.

قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللهِ! أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ(٣)، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

قَالَتْ وَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ(٤) يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ.

قَالَتْ فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا.

وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَمْ يُضَيِّقْ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ(٥).

---

(١) قَوْله: (وَضِيئَة) بِوَزْنِ عَظِيمَة مِنْ الْوَضَاءَة أَيْ حَسَنَة جَمِيلَة، وَعِنْدَ مُسْلِم مِنْ رِوَايَة اِبْن مَاهَانَ «حَظِيَّة» بِمُهْمَلَةٍ ثُمَّ مُعْجَمَة مِنْ الْحَظْوَة أَيْ رَفِيعَة الْمَنْزِلَة، وَفِي رِوَايَة هِشَام «مَا كَانَتْ اِمْرَأَة حَسْنَاء».

(٢) «كَثَّرْنَ» بِالتَّشْدِيدِ أَيْ الْقَوْل فِي عَيْبهَا.

(٣) قَوْله: (لَا يَرْقَأ لِي دَمْع) بِالْقَافِ بَعْدَهَا هَمْزَة أَيْ لَا يَنْقَطِعُ. قَوْله: (وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ) اِسْتِعَارَة لِلسَّهَرِ،

(٤) قَوْله: (حِينَ اِسْتَلْبَثَ الْوَحْي) بِالرَّفْعِ أَيْ طَالَ لَبِثَ نُزُوله، وَبِالنَّصْبِ أَيْ اِسْتَبْطَأَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُزُوله.

(٥) قَالَ الشَّيْخ أَبُو مُحَمَّد بْن أَبِي جَمْرَة: لَمْ يَجْزِم عَلِيّ بِالْإِشَارَةِ بِفِرَاقِهَا لِأَنَّهُ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:=

قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَة، فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟ قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ[1] غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا[2] فَتَأْتِي الدَّاجِنُ[3] فَتَأْكُلُهُ.

قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ[4] مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي؟ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي.

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ

= «وَسَلْ الْجَارِيَة تَصْدُقْك» فَفَوَّضَ الْأَمْر فِي ذَلِكَ إِلَى نَظَر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ أَرَدْت تَعْجِيل الرَّاحَة فَفَارِقْهَا، وَإِنْ أَرَدْت خِلَاف ذَلِكَ فَابْحَثْ عَنْ حَقِيقَة الْأَمْر إِلَى أَنْ تَطَّلِعَ عَلَى بَرَاءَتها. لِأَنَّهُ كَانَ يَتَحَقَّق أَنَّ بَرِيرَةَ لَا تُخْبِرهُ إِلَّا بِمَا عَلِمَتْهُ، وَهِيَ لَمْ تَعْلَم مِنْ عَائِشَة إِلَّا الْبَرَاءَة الْمَحْضَة.

(١) قَوْله: (أَغْمِصُهُ) بِغَيْنٍ مُعْجَمَة وَصَادٍ مُهْمَلَة أَيْ أَعِيبُهُ.

(٢) قَالَ اِبْن الْمُنِير فِي الْحَاشِيَة: هَذَا مِنْ الِاسْتِثْنَاء الْبَدِيع الَّذِي يُرَاد بِهِ الْمُبَالَغَة فِي نَفْي الْعَيْب، فَغَفَلْتهَا عَنْ عَجِينهَا أَبْعَدُ لَهَا مِنْ مِثْل الَّذِي رُمِيَتْ بِهِ وَأَقْرَب إِلَى أَنْ تَكُونَ مِنْ الْغَافِلَات الْمُؤْمِنَات.

(٣) الشَّاة الَّتِي تَأْلَفُ الْبَيْت وَلَا تَخْرُج إِلَى الْمَرْعَى، وَقِيلَ هِيَ كُلّ مَا يَأْلَف الْبُيُوت مُطْلَقًا شَاةً أَوْ طَيْرًا.

(٤) قَوْله: (فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ) أَيْ طَلَبَ مَنْ يَعْذِرُهُ مِنْهُ، أَيْ يُنْصِفُهُ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: يُحْتَمَل أَنْ يَكُون مَعْنَاهُ مَنْ يَقُوم بِعُذْرِهِ فِيمَا رَمَى أَهْلِي بِهِ مِنْ الْمَكْرُوه، وَمَنْ يَقُوم بِعُذْرِي إِذَا عَاقَبْته عَلَى سُوء مَا صَدَرَ مِنْهُ؟

أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الْخَزْرَجِ، وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بِنْتَ عَمِّهِ مِنْ فَخِذِهِ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ.

قَالَتْ: فَثَارَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنبَرِ، قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ.

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصار، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي.

قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ. قَالَتْ فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ



اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ[١] فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي[٢] حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِّي فِيمَا قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ[٣] وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي. فَوَاللهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[٤].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ

---

(١) قَوْله: (وَإِنْ كُنْت أَلْمَمْت بِذَنْبٍ) أَيْ وَقَعَ مِنْك عَلَى خِلَاف الْعَادَة، وَهَذَا حَقِيقَة الْإِلْمَام، وَمِنْهُ «أَلَمَّتْ بِنَا وَاللَّيْل مُرْخٍ سُتُوره».

(٢) قَوْله: (قَلَصَ دَمْعِي) بِفَتْحِ الْقَاف وَاللَّام ثُمَّ مُهْمَلَة أَيْ اِسْتَمْسَكَ نُزُوله فَانْقَطَعَ وَمِنْهُ قَلَصَ الظِّلّ وَتَقَلَّصَ إِذَا شُمِّرَ، قَالَ الْقُرْطُبِيّ: سَبَبه أَنَّ الْحُزْن وَالْغَضَب إِذَا أَخَذَ أَحَدهمَا فُقِدَ الدَّمْع لِفَرْطِ حَرَارَة الْمُصِيبَة.

(٣) قَوْله: (حَتَّى اِسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسكُمْ) فِي رِوَايَة فُلَيْحٍ «وَقَرَ» بِالتَّخْفِيفِ أَيْ ثَبَتَ وَزْنًا وَمَعْنًى.

(٤) سورة يوسف الآية (١٨).

اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا.

فَوَاللهِ مَا رَامَ[1] رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ[2]، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلُ الْجُمَانِ[3]، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ فَسُرِّيَ[4] عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: يَا عَائِشَةُ أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ.

قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾[5] الْعَشْرَ

---

(١) قَوْله: (فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَيْ فَارَقَ، وَمَصْدَره الرَّيْم بِالتَّحْتَانِيَّةِ، بِخِلَافِ رَامَ بِمَعْنَى طَلَبَ فَمَصْدَرُهُ الرَّوْم، وَيَفْتَرِقَانِ فِي الْمُضَارِع: يُقَال رَامَ يَرُوم رَوْمًا وَرَامَ يَرِيم رَيْمًا.

(٢) قَوْله: (فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاء) بِضَمِّ الْمُوَحَّدَة وَفَتْح الرَّاء ثُمَّ مُهْمَلَة ثُمَّ مَدّ: هِيَ شِدَّة الْحُمَّى، وَقِيلَ شِدَّة الْكَرْب، وَقِيلَ شِدَّة الْحَرّ، وَمِنْهُ بَرِحَ بِي الْهَمّ إِذَا بَلَغَ مِنِّي غَايَته.

(٣) الْجُمَان بِضَمِّ الْجِيم وَتَخْفِيف الْمِيم اللُّؤْلُؤ، وَقِيلَ حَبٌّ يُعْمَل مِنْ الْفِضَّة كَاللُّؤْلُؤِ، وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ: خَرَز أَبْيَض، وَالْأَوَّل أَوْلَى، فَشُبِّهَتْ قَطَرَات عَرَقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجُمَانِ لِمُشَابَهَتِهَا فِي الصِّفَات وَالْحُسْن.

(٤) قَوْله: (فَسُرِّيَ) بِضَمِّ الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد الرَّاء الْمَكْسُورَة أَيْ كُشِفَ.

(٥) سورة النور الآية (١١).

الْآيَاتِ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لِزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي[2] وَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي[3] مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَصَمَهَا اللهُ بِالْوَرَعِ قَالَتْ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ[4].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ.

ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ لَيَقُولُ: سُبْحَانَ اللهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ. قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

---

(١) سورة النور الآية (٢٢).

(٢) (أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي) أَيْ مِنْ الْحِمَايَة فَلَا أَنْسُب إِلَيْهِمَا مَا لَمْ أَسْمَعْ وَأُبْصِرْ.

(٣) قَوْله: (وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي) أَيْ تُعَالِينِي مِنْ السُّمُوّ وَهُوَ الْعُلُوّ وَالِارْتِفَاع أَيْ تُطْلَب مِنْ الْعُلُوّ وَالرِّفْعَة وَالْحَظْوَة عِنْدَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَطْلُب، أَوْ تَعْتَقِد أَنَّ الَّذِي لَهَا عِنْدَهُ مِثْل الَّذِي لِي عِنْدَهُ.

(٤) أَيْ حَدَّثَت فِيمَنْ حَدَّثَ أَوْ أَثِمَت مَعَ مَنْ أَثِمَ.

٢ ـ حديث أم زرع:

جمع هذا الحديث من فنون القول، وفصيح البيان، وجميل التعبير، ومحسنات البديع، ما لا ينقضي منه العجب، وقد رواه البخاري ومسلم.

ونثبته فيما يأتي بأصح رواياته، وهي رواية البخاري، موزعا على فقرات، توضح أجزاءه، ومفصلا بعلامات ترقيم تعين على قراءته وفهمه، ومذيلا بشروح تبيّن غريبه، وتدني بعيده، مقبوسة بتصرف من شرح النووي على صحيح مسلم.

قال البخاري: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ قَالَا أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا.

قَالَتْ الْأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ(١)، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ(٢)، لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى، وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ(٣).

قَالَتْ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ(٤).

---

(١) الْغَثّ الْمَهْزُول.

(٢) في رواية مسلم: (عَلَى رَأْس جَبَل وَعْر) أَيْ صَعْب الْوُصُول إِلَيْهِ.

(٣) وَقَوْلهَا: (وَلَا سَمِين فَيُنْتَقَل) أَيْ تَنْقُلُهُ النَّاس إِلَى بُيُوتهمْ لِيَأْكُلُوهُ، بَلْ يَتْرُكُوهُ رَغْبَة عَنْهُ لِرَدَاءَتِهِ.

(٤) قَوْلُهَا: (لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ) أَيْ لَا أَنْشُرهُ وَأُشِيعُهُ. =

قَالَتْ الثَّالِثَةُ: زَوْجِي الْعَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ(١).

قَالَتْ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ(٢).

قَالَتْ الْخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ(٣).

قَالَتْ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنْ اضْطَجَعَ الْتَفَّ، وَلَا يُولِجُ الْكَفَّ لِيَعْلَمَ الْبَثَّ(٤).

= (إِنِّي أَخَاف أَنْ لَا أَذَرَهُ) أَي خَبَره طَوِيل إِنْ شَرَعْت فِي تَفْصِيله لَا أَقْدِرُ عَلَى إِتْمَامه لِكَثْرَتِهِ.

وَأَمَّا (عُجَره وَبُجَره) فَالْمُرَاد بِهِمَا عُيُوبُهُ.

(١) الْعَشَنَّق بِعَيْنٍ مُهْمَلَة مَفْتُوحَة ثُمَّ شِين مُعْجَمَة مَفْتُوحَة ثُمَّ نُون مُشَدَّدَة ثُمَّ قَاف، وَهُوَ الطَّوِيل، وَمَعْنَاهُ لَيْسَ فِيهِ أَكْثَر مِنْ طُول بِلَا نَفْع، فَإِنْ ذَكَرْت عُيُوبه طَلَّقَنِي، وَإِنْ سَكَتّ عَنْهَا عَلَّقَنِي، فَتَرَكَنِي لَا عَزْبَاء وَلَا مُزَوَّجَة.

(٢) هَذَا مَدْح بَلِيغ، وَمَعْنَاهُ لَيْسَ فِيهِ أَذَى، بَلْ هُوَ رَاحَة وَلَذَاذَة عَيْش، كَلَيْلِ تِهَامَة لَذِيذ مُعْتَدِل، لَيْسَ فِيهِ حَرّ، وَلَا بَرْد مُفْرِط، وَلَا أَخَافُ لَهُ غَائِلَة لِكَرَمِ أَخْلَاقه، وَلَا يَسْأَمُنِي وَيَمَلُّ صُحْبَتِي.

(٣) هَذَا أَيْضًا مَدْح بَلِيغ، فَقَوْلهَا: فَهِد بِفَتْحِ الْفَاء وَكَسْر الْهَاء تَصِفُهُ إِذَا دَخَلَ الْبَيْت بِكَثْرَةِ النَّوْم وَالْغَفْلَة فِي مَنْزِله عَنْ تَعَهُّد مَا ذَهَبَ مِنْ مَتَاعه وَمَا بَقِيَ، وَشَبَّهَتْهُ بِالْفَهِدِ لِكَثْرَةِ نَوْمه، يُقَال: أَنْوَم مِنْ فَهِد، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلهَا (: وَلَا يَسْأَل عَمَّا عَهِدَ) أَيْ لَا يَسْأَلُ عَمَّا كَانَ عَهِدَهُ فِي الْبَيْت مِنْ مَاله وَمَتَاعه، وَإِذَا خَرَجَ أَسِد بِفَتْحِ الْهَمْزَة وَكَسْر السِّين، وَهُوَ وَصْف لَهُ بِالشَّجَاعَةِ، وَمَعْنَاهُ إِذَا صَارَ بَيْن النَّاس أَوْ خَالَطَ الْحَرْب كَانَ كَالْأَسَدِ، يُقَال: أَسِدَ وَاسْتَأْسَدَ.

(٤) (اللَّفّ) فِي الطَّعَام الْإِكْثَار مِنْهُ مَعَ التَّخْلِيط مِنْ صُنُوفه حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْء.=

قَالَتْ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ أَوْ عَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكِ(١).

قَالَتْ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ(٢).

قَالَتْ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ الْعِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ الْبَيْتِ مِنْ النَّادِ(٣).

= وَالِاشْتِفَاف فِي الشُّرْب أَنْ يَسْتَوْعِبَ جَمِيع مَا فِي الْإِنَاء، مَأْخُوذ مِنْ الشُّفَافَة بِضَمِّ الشِّين، وَهِيَ مَا بَقِيَ فِي الْإِنَاء مِنْ الشَّرَاب، فَإِذَا شَرِبَهَا قِيلَ: اِشْتَفَّهَا، وَتَشَافَهَا،

وَقَوْلهَا: (وَلَا يُولِجُ الْكَفّ لِيَعْلَم الْبَثّ) قَالَ الْهَرَوِيُّ: قَالَ اِبْن الْأَعْرَابِيّ: هَذَا ذَمّ لَهُ، أَرَادَتْ: وَإِنْ اِضْطَجَعَ وَرَقَدَ اِلْتَفَّ فِي ثِيَابه فِي نَاحِيَةٍ، وَلَمْ يُضَاجِعْنِي لِيَعْلَمَ مَا عِنْدِي مِنْ مَحَبَّتِهِ.

(١) هَكَذَا وَقَعَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَة (غَيَايَاء) بَالغَيْنِ الْمُعْجَمَة، أَوْ (عَيَايَاء) بِالْمُهْمَلَةِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُلْقِح، وَقِيلَ: هُوَ الْعِنِّين الَّذِي تَعِيبُهُ مُبَاضَعَة النِّسَاء، وَيَعْجِز عَنْهَا. وَهو بِالْمُعْجَمَةِ مَأْخُوذ مِنْ الْغَيَايَة، وَهِيَ الظُّلْمَة، وَكُلّ مَا أَظَلّ الشَّخْص، وَمَعْنَاهُ لَا يَهْتَدِي إِلَى سِلْك، أَوْ مِنْ الْغَيّ الَّذِي هُوَ الْخَيْبَة وَأَمَّا (طَبَاقَاء) فَمَعْنَاهُ الْمُطْبَقَة عَلَيْهِ أُمُوره حُمْقًا،

وَقَوْلهَا: (شَجَّك) أَيْ جَرَحَك فِي الرَّأْس.

وَقَوْلهَا (فَلَّك) الْفَلُّ الْكَسْر وَالضَّرْب. وَمَعْنَاهُ أَنَّهَا مَعَهُ بَيْن شَجّ رَأْس، وَضَرْب، وَكَسْر عُضْو، أَوْ جَمْع بَيْنهمَا.

وَقَوْلهَا: (كُلّ دَاء لَهُ دَاء) أَيْ جَمِيع أَدْوَاء النَّاس مُجْتَمِعَة فِيهِ.

(٢) الزَّرْنَب: نَوْع مِنْ الطِّيب مَعْرُوف. وَالْمَسّ مَسّ أَرْنَب: صَرِيح فِي لِين الْجَانِب، وَكَرَم الْخُلُق.

(٣) هَكَذَا هُوَ فِي النُّسَخ (النَّادِي) بِالْيَاءِ، وَهُوَ الْفَصِيح فِي الْعَرَبِيَّة، لَكِنَّ الْمَشْهُور فِي الرِّوَايَة حَذْفهَا لِيَتِمّ السَّجْع. قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَى رَفِيع الْعِمَاد وَصْفه بِالشَّرَفِ، وَسَنَاء الذِّكْر.

وَقَوْلهَا: طَوِيل النِّجَاد بِكَسْرِ النُّون تَصِفُهُ بِطُولِ الْقَامَة. =

قَالَتْ الْعَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ، وَمَا مَالِكٌ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ الْمَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ الْمَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ الْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ[1].

قَالَتْ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي[2].

وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ

= قَوْلهَا: (عَظِيم الرَّمَاد) تَصِفُهُ بِالْجُودِ وَكَثْرَة الضِّيَافَة مِنْ اللُّحُوم وَالْخُبْز.

وَقَوْلهَا: (قَرِيب الْبَيْت مِنْ النَّادِي) قَالَ أَهْل اللُّغَة: النَّادِي مَجْلِس الْقَوْم، وَصَفَتْهُ بِالْكَرَمِ وَالسُّؤْدُد، لِأَنَّهُ لَا يَقْرُب الْبَيْت مِنْ النَّادِي إِلَّا مَنْ هَذِهِ صِفَته.

(١) مَعْنَاهُ أَنَّ لَهُ إِبِلًا كَثِيرًا فَهِيَ بَارِكَة بِفِنَائِهِ، لَا يُوَجِّهُهَا تَسْرَح إِلَّا قَلِيلًا لِيُقْرِي ضيفانه مِنْ أَلْبَانهَا وَلُحُومهَا.

وَالْمِزْهَر بِكَسْرِ الْمِيم الْعُودُ الَّذِي يَضْرِبُ.

أَرَادَتْ أَنَّ زَوْجهَا عَوَّدَ إِبِله إِذَا نَزَلَ بِهِ الضِّيفَان نَحَرَ لَهُمْ مِنْهَا، وَأَتَاهُمْ بِالْعِيدَانِ وَالْمَعَازِف وَالشَّرَاب، فَإِذَا سَمِعَتْ الْإِبِل صَوْت الْمِزْهَر عَلِمْنَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُ الضِّيفَان، وَأَنَّهُنَّ مَنْحُورَات هَوَالِك.

(٢) قَوْلهَا (أُنَاس مِنْ حُلِيّ أُذُنَيّ) هُوَ بِتَشْدِيدِ الْيَاء مِنْ (أُذُنَيّ) عَلَى التَّثْنِيَة، وَالْحُلِيّ بِضَمِّ الْحَاء وَكَسْرهَا لُغَتَانِ مَشْهُورَتَانِ. وَالنَّوْس بِالنُّونِ وَالسِّين الْمُهْمَلَة الْحَرَكَة مِنْ كُلّ شَيْء مُتَدَلٍّ، يُقَالُ مِنْهُ: نَاسَ يَنُوسُ نَوْسًا، وَأَنَاسَهُ غَيْره أَنَاسَةً، وَمَعْنَاهُ حَلَّانِي قِرَطَة وَشُنُوفًا فَهُوَ تَنَوَّس أَيْ تَتَحَرَّك لِكَثْرَتِهَا

قَوْلهَا: (وَمَلَأَ مِنْ شَحْم عَضُدِي) وَقَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ أَسْمَنَنِي، وَمَلَأَ بَدَنِي شَحْمًا، وَلَمْ تُرِدْ اِخْتِصَاص الْعَضُدَيْنِ، لَكِنْ إِذَا سَمِنَتَا سَمِنَ غَيْرهمَا.

قَوْلهَا: (وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي) هُوَ بِتَشْدِيدِ جِيم (بَجَّحَنِي) مَعْنَاهُ فَرَّحَنِي فَفَرِحْت.

وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ[١].

أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ[٢].

ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ[٣].

---

(١) أَمَّا قَوْلهَا: (فِي غُنَيْمَة) فَبِضَمِّ الْغَيْن تَصْغِير الْغَنَم، أَرَادَتْ أَنَّ أَهْلهَا كَانُوا أَصْحَاب غَنَم لَا أَصْحَاب خَيْل وَإِبِل؛ لِأَنَّ الصَّهِيل أَصْوَات الْخَيْل، وَالْأَطِيط أَصْوَات الْإِبِل وَحَنِينهَا، وَالْعَرَب لَا تَعْتَدُّ بِأَصْحَابِ الْغَنَم، وَإِنَّمَا يَعْتَدُّونَ بِأَهْلِ الْخَيْل وَالْإِبِل.
وَأَمَّا قَوْلهَا: (بِشِقٍّ)، فَهُوَ بِكَسْرِ الشِّين وَفَتْحهَا، وَهُوَ مَوْضِعٌ. أَوِ شِقِّ جَبَل لِقِلَّتِهِمْ وَقِلَّة غَنَمهمْ، وَشِقّ الْجَبَل نَاحِيَته.
وَقَوْلهَا: (وَدَائِس) هُوَ الَّذِي يَدُوسُ الزَّرْع فِي بَيْدَرِهِ.
قَوْلهَا: (وَمُنَقٍّ) هُوَ بِضَمِّ الْمِيم وَفَتْح النُّون وَتَشْدِيد الْقَاف، وَهُوَ مِنْ النَّقِيق، وَهُوَ أَصْوَات الْمَوَاشِي. تَصِفُهُ بِكَثْرَةِ أَمْوَاله.
قَوْلهَا (فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّح) مَعْنَاهُ لَا يُقَبِّح قَوْلِي فَيَرُدُّ، بَلْ يَقْبَلُ مِنِّي.
وَمَعْنَى (أَتَصَبَّحُ) أَنَام الصُّبْحَة، وَهِيَ بَعْد الصَّبَاح، أَيْ أَنَّهَا مَكْفِيَّة بِمَنْ يَخْدُمُهَا فتَنَام.
وَقَوْلهَا: (فَأَتَقَنَّح) وَبِالنُّونِ بَعْد الْقَاف فَمَعْنَاهُ أَقْطَع الْمُشْرَب، وَأَتَمَهَّل فِيهِ.

(٢) قَوْلهَا: (عُكُومُهَا رَدَاح الْعُكُوم الْأَعْدَال وَالْأَوْعِيَة الَّتِي فِيهَا الطَّعَام وَالْأَمْتِعَة، وَاحِدُهَا عِكْم بِكَسْرِ الْعَيْن. وَرَدَاح أَيْ عِظَام كَبِيرَة.
قَوْلهَا: (وَبَيْتهَا فَسَاح) بِفَتْحِ الْفَاء وَتَخْفِيف السِّين الْمُهْمَلَة أَيْ وَاسِع، وَالْفَسِيح مِثْله.

(٣) قَوْلهَا: (مَضْجَعه كَمَسَلِّ شَطْبَة) الْمَسَلّ بِفَتْحِ الْمِيم وَالسِّين الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد اللَّام، وَشَطْبَة بِشِينٍ مُعْجَمَة ثُمَّ طَاء مُهْمَلَة سَاكِنَة ثُمَّ مُوَحَّدَة ثُمَّ هَاء، وَهِيَ مَا شُطِبَ مِنْ جَرِيد النَّخْل، أَيْ شُقَّ، وَهِيَ السَّعَفَة لِأَنَّ الْجَرِيدَة تُشَقَّقُ مِنْهَا قُضْبَان رِقَاق مُرَادهَا أَنَّهُ مُهَفْهَف خَفِيف اللَّحْم كَالشَّطْبَةِ، وَهُوَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ الرَّجُل.
قَوْلهَا: (وَتُشْبِعُهُ ذِرَاع الْجَفْرَة) الذِّرَاع مُؤَنَّثَة، وَقَدْ تُذَكَّرُ وَالْجَفْرَة بِفَتْحِ الْجِيم وَهِيَ الْأُنْثَى مِنْ أَوْلَاد الْمَعْز.

بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا(١).

جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا، وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا(٢).

قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالْأَوْطَابُ تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا(٣).

فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِّيًّا، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجًا(٤)، ....

---

(١) قَوْلهَا: (طَوْع أَبِيهَا وَطَوْع أُمّهَا) أَيْ مُطِيعَة لَهُمَا مُنْقَادَة لِأَمْرِهِمَا.
قَوْلهَا: (وَمِلْء كِسَائِهَا) أَيْ مُمْتَلِئَة الْجِسْم سَمِينَة.
قَوْلهَا: (وَغَيْظ جَارَتهَا)
قَالُوا: الْمُرَاد بِجَارَتِهَا ضَرَّتهَا، يَغِيظهَا مَا تَرَى مِنْ حَسَنهَا وَجَمَالهَا وَعِفَّتهَا وَأَدَبهَا.

(٢) قَوْلهَا: (لَا تَبُثُّ حَدِيثنَا تَبْثِيثًا) هُوَ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَة بَيْن الْمُثَنَّاة وَالْمُثَلَّثَة أَيْ لَا تُشِيعُهُ وَتُظْهِرُهُ، بَلْ تَكْتُمُ سِرَّنَا وَحَدِيثنَا كُلّه.
قَوْلهَا: (وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتنَا تَنْقِيثًا) الْمِيرَة الطَّعَام الْمَجْلُوب، وَمَعْنَاهُ لَا تُفْسِدُهُ، وَلَا تُفَرِّقُهُ، وَلَا تَذْهَب بِهِ وَمَعْنَاهُ وَصْفُهَا بِالْأَمَانَةِ.
قَوْلهَا: (وَلَا تَمْلَأُ بَيْتنَا تَعْشِيشًا) هُوَ بِالْعَيْنِ بِالْمُهْمَلَةِ، أَيْ لَا تَتْرُكُ الْكُنَاسَة وَالْقُمَامَة فِيهِ مُفَرَّقَة كَعُشِّ الطَّائِر، بَلْ هِيَ مُصْلِحَة لِلْبَيْتِ، مُعْتَنِيَة بِتَنْظِيفِهِ.

(٣) قَوْلهَا: (وَالْأَوْطَاب تُمْخَض) هُوَ جَمْع وَطْب بِفَتْحِ الْوَاو وَإِسْكَان الطَّاء، وَهُوَ جَمْعٌ قَلِيلُ النَّظِير. وَهِيَ سَقِيَّة اللَّبَن الَّتِي يُمْخَض فِيهَا.
قَوْلهَا: (يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْت خَصْرهَا بِرُمَّانَتَيْنِ) الْمُرَاد بِالرُّمَّانَتَيْنِ هُنَا ثَدْيَاهَا.

(٤) قَوْلهَا: (فَنَكَحْت بَعْده رَجُلًا سِرِّيًّا رَكِبَ شَرِيًّا) أَمَّا الْأَوَّل فَبِالسِّينِ الْمُهْمَلَة عَلَى=

وَقَالَ كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ(١).

قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ(٢).

قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامٍ وَلَا تُعَشِّشُ بَيْتَنَا تَعْشِيشًا.

قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَأَتَقَمَّحُ بِالْمِيمِ وَهَذَا أَصَحُّ(٣).

* * *

= الْمَشْهُور، وَأَمَّا الثَّانِي فَبِالشِّينِ الْمُعْجَمَة بِلَا خِلَاف، فَالْأَوَّل مَعْنَاهُ سَيِّدًا شَرِيفًا، وَالثَّانِي هُوَ الْفَرَس الَّذِي يَسْتَشْرِي فِي سَيْره أَيْ يُلِحُّ وَيَمْضِي بِلَا فُتُور، وَلَا اِنْكِسَار.

قَوْلهَا: (وَأَخَذَ خَطِّيًّا) هُوَ بِفَتْحِ الْخَاء وَكَسْرهَا، وَالْفَتْح أَشْهَر، وَالْخَطِّيّ الرُّمْح مَنْسُوب إِلَى الْخَطّ قَرْيَة مِنْ سَيْف الْبَحْر أَيْ سَاحِله عِنْد عَمَّان وَالْبَحْرَيْنِ.

قَوْلهَا: (وَأَرَاحَ عَلَيَّ نِعَمًا ثَرِيًّا) أَيْ أَتَى بِهَا إِلَى مُرَاحهَا بِضَمِّ الْمِيم هُوَ مَوْضِع مَبِيتهَا. وَالنَّعَم الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم.

قَوْلهَا: (وَأَعْطَانِي مِنْ كُلّ رَائِحَة زَوْجًا) فَقَوْلهَا (مِنْ كُلّ رَائِحَة) أَيْ مِمَّا يَرُوح مِنْ الْإِبِل وَالْبَقَر وَالْغَنَم وَالْعَبِيد. وَقَوْلهَا (زَوْجًا) أَيْ اِثْنَيْنِ.

(١) قَوْله: (مِيرِي أَهْلك) بِكَسْرِ الْمِيم مِنْ الْمِيرَة، أَيْ أَعْطِيهِمْ وَافْضُلِي عَلَيْهِمْ وَصِلِيهِمْ.

(٢) قَوْله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَائِشَة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (كُنْت لَك كَأَبِي زَرْع لِأُمِّ زَرْع)

قَالَ الْعُلَمَاء: هُوَ تَطْيِيبٌ لِنَفْسِهَا، وَإِيضَاحٌ لِحُسْنِ عِشْرَته إِيَّاهَا، وَمَعْنَاهُ أَنَا لَك كَأَبِي زَرْع (وَكَانَ) زَائِدَة، أَوْ لِلدَّوَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أَيْ كَانَ فِيمَا مَضَى، وَهُوَ بَاقٍ كَذَلِكَ. وَالله أَعْلَمُ.

(٣) صحيح البخاري ١٦/١٨٩، رقم ٤٧٩٠.



والحق أن هذا الحديث الرائع جلّى لنا صورا مختلفة من تعامل الأزواج مع زوجاتهن، مشفوعة برأي الزوجات بهذه الصور، وهي صور مختلفة فيها المدح وفيها الذم، وكلاهما إذا قرئ مفيد، لأن المرء يعلم منها ما تحبه المرأة من زوجها وتمدحه وترغب فيه وتتطلع إليه، فيحاكيه ويتبعه، ويعلم ما تنفر منه وترغب عنه، فيبتعد عنه ويجتنبه. ففي الصفات إذن محاسن تبتغى ومساوئ تتقى.

هذا وقد تناول العلماء هذا الحديث، بالشرح والدراسة والتحليل، حتى إن بعضهم أفرده بالتصنيف، كالرافعي الذي صنف فيه كتابا سماه: **درة الضرع لحديث أم زرع**. جاء في خاتمته:

«يروى عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: (قلت يا رسول الله! بل أنت لي خير من أبي زرع لأم زرع)، وهذا هو اللائق لحسن أدبها.

واعلم أن حديث أم زرع قد تكلم في تفسيره ومعانيه جماعة من المتقدمين والمتأخرين من علماء الحديث وأصحاب اللغة، وفيما أوردناه ما يحوي معظمه.

❊ **فوائد الحديث:**

قال الإمام أبو سليمان الخطابي: (وفيه: العلم، وحسن العشرة مع الأهل، واستحباب محادثتهن بما لا إثم فيه. وفيه: أن بعضهن قد ذكرن عيوب أزواجهن، ولم يكن ذلك غيبة لأنهن لم يعرفوا بأعيانهم وأسمائهم).

وزاد تاج الإسلام أبو بكر السمعاني، فقال: (فيه دلالة على جواز ذكر أمور الجاهلية واقتصاص أحوالهم؛ وعلى فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومحبته لها بملاطفته إياها؛ وعلى أن السمر بما يحل جائز).



ولمعنى حسن العشرة مع الأهل ونحوه أورد البخاري الحديث في (كتاب النكاح)، ولإشعاره بفضل عائشة أورده مسلم في (الفضائل)، ولمعنى السمر أورده أبو عيسى الترمذي في (أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم) في باب ترجمه بكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السمر؛ وليس في اللفظ ما يدل على أن ذلك كان في السمر، لكن القصة تشبه الأسمار وربما ورد نقل.

وكان والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرغبني في حفظ هذا الحديث في صغري لكثرة فوائده، وحسن ألفاظه. وأختم الآن الحديث وشرحه بقولي:

نَفسي مِن جانِبِ طاعاتِها حَلَّت بِوادٍ غَيرِ ذي زَرعِ
لكنّ رَبي واسع فَضلُهُ إن اَعتنى بي لم يَضِق ذَرعِي
وَصِرتُ أرتاحُ بإحسانِهِ كأُمِّ زَرعٍ بِأبي زَرعِ

أحسن الله بنا، وحقق المنى بجوده وسعة رحمته»[1].

٣ ـ شذرات من أقوالها:

بِشْرُ بنُ الوَلِيْدِ القَاضِي: حَدَّثَنَا عُمَرُ بنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ سُلَيْمَانَ الشَّيْبَانِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بنِ زَيْدِ بنِ جُدْعَانَ، عَنْ جَدَّتِهِ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ:

لَقَدْ أُعْطِيْتُ تِسْعاً مَا أُعْطِيَتْهَا امْرَأَةٌ بَعْدَ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ: لَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيْلُ بِصُوْرَتِي فِي رَاحَتِهِ حَتَّى أَمَرَ رَسُوْلَ اللهِ ـ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي، وَلَقَدْ

(١) درة الضرع لحديث أم زرع ٧٢ ـ ٧٦، ط دار ابن حزم بتحقيق مشهور حسن سلمان.



تَزَوَّجَنِي بِكْراً، وَمَا تَزَوَّجَ بِكْراً غَيْرِي، وَلَقَدْ قُبِضَ وَرَأْسُهُ فِي حَجْرِي، وَلَقَدْ قَبَرْتُهُ فِي بَيْتِي، وَلَقَدْ حَفَّتِ الملائَكَةُ بِبَيْتِي، وَإِنْ كَانَ الوَحْيُ لَيَنْزِلُ عَلَيْهِ وَإِنِّي لَمَعَهُ فِي لِحَافِهِ، وَإِنِّي لابْنَةُ خَلِيْفَتِهِ وَصِدِّيْقِهِ، وَلَقَدْ نَزَلَ عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، وَلَقَدْ خُلِقْتُ طَيِّبَةً عِنْدَ طَيِّبٍ، وَلَقَدْ وُعِدْتُ مَغْفِرَةً وَرِزْقاً كَرِيْماً[1].

* قالت عائشة، رضوان الله عليها:

لما قُبِض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نجم النفاق، وارتدَّت العرب، وكان المسلمون كالغنم الشارِدَة، في الليلة الماطرة، فحمل أبي ما لو حملته الجبال لهَاضها[2]، فوالله إن اختلفوا في معظّم إلاّ ذهب بحظّه ورشده، وغنائه.

وكنتُ إذا نظرتُ إلى عمر علمتُ أنه إنما خلِقَ للإسلام، فكان والله أحوذيّاً[3] نسيجَ وَحْدِهِ، قد أعَدَّ للأمور أقرانها.

* ولما تُوُفِّي أبو بكرٍ الصّدّيقُ رَحِمَهُ اللَّهُ، قامت عائشةُ على قبره فقالت:

نَضَّرَ الله وجْهَك، وشَكَر لك صالحَ سَعيك، فلقد كنتَ للدُّنيا مُذِلاًّ بإدبارك عنها، وللآخرة مُعِزّاً بإقبالك عليها.

وإنْ كان لأجَلَّ الأرزاء بَعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُزْؤُك، ولأكبرَ المصائبِ فقدُك.

---

(١) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٢/١٤١).

(٢) أي كسرها.

(٣) الأحوذيُّ: المشمِّر في الأمور القاهر لها الذي لا يشذ عليه منها شيء.

وإنَّ كتابَ الله ليَعِدُ بجميل العزاء عنك حُسْنَ العِوَض منك، فأنْتَجزُ من الله موعودَه فيك بالصَّبر عنك، وأستخلصه بالاستغفار لك[١].

أما لئن كانوا قاموا بأمر الدنيا فلقد قمتَ بأمر الدين لمّا وَهى شَعْبُهُ[٢] وتفاقم صَدْعهُ[٣]، ورجَفَتْ جوانبه[٤]؛ فعليك سلام الله توديعَ غير قاليةٍ لحياتك، ولا زارية[٥] على القضاء فيك[٦].

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٢.

(٢) تفرق شمله.

(٣) اتسع كسره.

(٤) اضطربت.

(٥) عائبة.

(٦) زيادة من زهر الآداب ١/٦٢.





ثالثاً: من بيان الأصحاب
عليهم الرحمة والرضوان

أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

۞ فضله ومكانته:

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكر»[١]، وقال أبو سفيان عن جابر قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا يبغض أبا بكر وعمر مؤمن ولا يحبهما منافق»[٢].

١ ـ بعض ما قاله أبو بكر الصديق حين قبض رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

دخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، على النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ وهو مُسَجًّى بثَوْبٍ، فكشَف عنه الثوبَ وقال:

بأبي أَنْتَ وأمي! طِبْتَ حَيًّاً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموتِ أحدٍ من الأنبياء من النبوّة، فعظمْتَ عن الصفة، وجَلَلْت عن البكاء،

(١) صحيح البخاري (٤٤٦)، ومسلم (٢٣٨٢) واللفظ للبخاري.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد (٥٩٧)، وسقط اسم جابر فيه، وهو عند تمام الرازي في فوائده (١٦١١)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (راشدون/٨).

وخَصَصْت حتى صرت مَسْلاَة، وعَممْتَ حتى صِرْنا فيك سَواء.

ولولا أنَ موتك كان اختياراً منك لجُدْنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البُكاء لأنْفَدْنَا عليك ماءَ الشؤون[١]. فأمَّا ما لا نستطيع نفيَه عنَّا فكمد وإدْناف[٢] يتحالفَانِ ولا يَبْرَحان.

اللهم فأَبلغه عنّا السلام، اذكُرْنَا يا محمد عند ربّك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلَّفْتَ من السكينة لم نُقمْ لما خلَّفْتَ من الوحشة[٣]، اللهمَّ أبلغ نبيَّك عنّا واحفظه فينا. ثم خرج[٤].

٢ ـ خطبته حين مات الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

ولمّا خرج إلى الناس وهم في شديد غَمَراتهم، وعظيم سَكَراتهم، قام فخطب خطبة جُلُّها الصلاةُ على النبي، صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال فيها:

أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدينَ كما شرع، وأنَّ الحديث كما حدث، وأن القول كما قال، وأن الله هو الحقُّ المبين.. في كلام طويل.. ثم قال:

أيها الناسُ؛ مَنْ كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإن الله حي لا يموت، وإن الله قد تقدَّم إليكما في أمره، فلا تَدَعُوه جَزَعاً،

(١) الشؤون: عروق الدموع من الرأس إلى العين.
(٢) الدَّنَف: المرض اللازم المخامر، وقد دنِف المريض بالكسر، أي ثقل، وأدنف مثله.
(٣) أي لولا ما ربيتنا عليه من الصبر والحلم ما كان لنا أن نقاوم ما خلفته من وحشة في نفوسنا.
(٤) زهر الآداب ١/٥٧.



وإن الله قد اختار لنبيهِ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى ثوابه، وخلَّف فيكم كتابه، وسنةَ نبيِّه، فمن أخذ بهما عَرَفَ، ومن فرَّق بينهما أنكر.

«يا أَيهَا الَّذِين آمَنُوا كُونوا قَوَامِينَ بالْقِسْطِ»، ولا يَشْغَلَنّكُمُ الشيطانُ بمَوتِ نبيّكُمْ، ويَفْتِنَنكُمْ عن دينكُم؛ فعاجلوه بالذي تعجزونه، ولا تستنظروه فيلحق بكم.

فلمّا فرغ من خطبته قال: يا عمر، بلغني أنك تقول ما مات نبيُّ الله، أَما علمت أنه قال في يوم كذا وكذا، وفي يوم كذا وكذا: قال الله تبارك وتعالى: «إنَّكَ ميِّت وإنّهُمْ مَيتُونَ»؟.

فقال عمر: والله لكأني لم أسمعْ بها في كتاب الله قَبْل؛ لما نزل بنا، أشهد أنَّ الكتابَ كما نزل، وأن الحديثَ كما حدّث، وأنّ الله حيٌ لا يموت، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون! ثم جلس إلى جنب أبي بكر رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)].

٣ ـ خطبة أبي بكر يوم السقيفة:

أراد عُمر الكلام، فقال له أبو بكر: على رِسْلك، ثم حَمد الله وأَثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، نحن المُهاجرون أوّلُ الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطّهم داراً، وأحسنُهم وجوهاً، وأكثر الناس وِلادةً في العرب، وأمسّهم رَحِماً برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾[(٢)].

---

(١) زهر الآداب ٥٩/١، ولا شك أن في هذا النص زيادات غير معروفة من كلمة أبي بكر المقتضبة المشهورة في هذه الحادثة.

(٢) سورة التوبة الآية (١٠٠).

فنحنُ المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدِّين، وشركاؤنا في الفَيْء، وأنصارُنا على العدوّ، آويتم وآسيتم[١]، فجزاكم اللهّ خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تَدِين العرب إلّا لهذا الحيّ من قُرَيش، فلا تنْفسوا[٢] على إخوانكم المهاجرين ما منحهم اللهّ من فضله[٣].

٤ ـ خطبته حين تولى الخلافة:

حمد الله وأَثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني قد وُلِّيتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأَعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدِّدوني.

أَطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإذا عصيتُه لا طاعة لي عليكم.

ألاَ إن أقواكم عندي الضَّعيفُ حتى آخذَ الحقَّ له، وأَضعفَكم عندي القوي حتى آخذَ الحق منه. أقول قولي هذا وأَستغفر الله لي ولكم[٤].

تعليق:

تأَمَّلْ هذه الخطبة الموجزة تجدْ فكرا سديدا، وأمرا رشيدا، وسبيلا واضحة، وحجة مقنعة، كل ذلك بلفظ وجيز، وبناء محكم، وصيغة متماسكة، وعبارات يأخذ بعضها برقاب بعض... إنها الفصاحة في أبهى صورها.

---

(١) المواساة: المشاركة والمساهمة في المعاش والرزق، وآساه بماله: أناله منه وجعله فيه أسوة.

(٢) أي لا تضنوا عليهم ولا تروا أنهم لا يستأهلون ما فُضلوا به.

(٣) العقد الفريد (١٤٩/٤) وانظر فيها أيضا البيان والتبيين ٢٩٧/٣، وأصله في البخاري (٣٦٦٨).

(٤) جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت ١٨٠/١.

٥ ـ خطبته عن الملوك:

جاء في البيان والتبيين:

وقال إبراهيم الأنصاري، وهو إبراهيم بن محمد المفلوج، من ولد أبي زيدٍ القارئ: الخلفاء والأئمة وأمراءُ المؤمنين ملوكٌ، وليس كلُّ ملكٍ يكون خليفة وإماماً، ولذلك فَصَل بينهم أبو بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خطبته، فإنه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبي قال:

أَلَا إنَّ أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك. فرفع الناس رؤوسهم، فقال: ما لكم أيّها الناس، إنكم لطَعَّانون عَجِلون، إن مِن الملوك مَن إذا مَلَكَ زهَّده الله فيما في يديه، ورغَّبه فيما في يدَيْ غيره، وانتقَصَه شَطْرَ أجله، وأَشرَبَ قلبَه الإشفاق، فهو يَحْسُد على القليل، ويتسخَّط الكثير، ويسأم الرَّخاء، وتنقطع عنه لذَّةُ الباءة(١)، ولا يستعمل العِبْرة، ولا يسكن إلى الثَّقة، فهو كالدِّرهم القَسِيِّ(٢)، والسَّراب الخادع، جَذِلُ(٣) الظاهر، حزينُ الباطن.

فإذا وجبَتْ نفْسُه، ونضَب عُمره، وضَحَا ظِلُّه(٤)، حاسَبه الله فأشَّدَّ حِسابَه، وأقلَّ عفوه، إلاّ مَنْ آمَنَ بالله، وحَكَمَ بكتابه وسُنَّة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَلا إن الفقراء هم المرحومون، أَلاَ وإنكم اليومَ على خلافِة النبوَّة،

---

(١) النكاح والتزويج.

(٢) درهم قَسِيّ ـ مخفف السين مشدد الياء على مثال شَقِيّ ـ رديء مرذول.

(٣) فَرِح.

(٤) ضحا ظله: مات. يقال ضحا الظل: إذا صار شمسا، وإذا صار ظل الإنسان شمسا فقد بطَل صاحبه ومات.

ومَفْرِق المَحَجَّة، وإنكم سترَوْن بعدي مُلْكاً عضُوضاً[١]، ومَلَكاً عَنُوداً[٢]، وأمَّةً شَعاعاً[٣]، ودماً مُفاحاً[٤].

فإن كانت للباطل نزوةٌ، ولأهل الحقِّ جَولةٌ، يعفو لها الأثر، ويموتُ لها البَشَرُ، وتحيا بها الفِتَنُ، وتَموت لها السُّنَن فالزموا المساجدَ، واستشيروا القُرآن، واعتصموا بالطاعة، ولا تفارِقوا الجماعة، وليكن الإبرام بعد المشاوَرة، والصَّفقة بعد طول التناظر.

أيُّ بلادِكمْ خَرْشَنَة[٥]؟ فإنكم سيُفتح عليكم أقصاها كمافُتح عليكم أدناها[٦].

٦ ـ خطبته في الأنصار:

جاء في زهر الآداب:

وذكر أنه وصل إلى أبي بكر مالٌ من البحرين، فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: فَضَلْنَا[٧]! فقال أبو بكر: صدقتُم، إن أردتُمْ أن أُفَضِّلُكم؛ صار ما عَمِلْتُمُوه للدنيا، وإن صبرتم كان ذلك لله عزَ وجل!

---

(١) العضوض: الشديد فيه عسف وعنف.

(٢) العنود: الطاغي العاتي المتجبر.

(٣) متفرقة مختلفة.

(٤) المفاح: السائل المهراق.

(٥) بلد قرب ملطية من بلاد الروم.

(٦) البيان والتبيين ٢/٤٣ ـ ٤٥، وانظر فيها أو في مقاطع منها: عيون الأخبار٢/٢٢٣، وصبح الأعشى ١/٢١٣، وزهر الآداب ١/٣٠.

(٧) في كتاب الأوائل للعسكري: «ما فضلنا؟.»

فقالوا: والله ما عملنا إلاّ لله تعالى، وانصرفوا.

فَرَقيَ أبو بكر المنبر، فحمِدَ الله، وأثنى عليه، وصلّى على النبي، صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ثم قال:

يا معشر الأنصار، إن شئتم أن تقولوا: إنا آوَيْناكم في ظِلاَلِنا، وشاطرناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإنَ لكم من الفضل ما لا يُحْصِيه العدد، وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال طُفَيل الغَنَوي:

جزى الله عنا جعفراً حينَ أزْلَقَتْ[1] ... بنا نَعْلُنا في الواطئين فزَلَّتِ
أبَوا أن يملّونا ولو أنَّ أمَّنا ... تُلاَقي الذي يَلْقَوْنَ منَّا لَمَلَّتِ
هُمُ أسكنونَا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوتٍ أدفأتْ وأظلَّتِ[2]

٧ ـ موعظة بليغة:

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أَوصِيكم بتقوى الله، وأن تُثْنُوا عليه بما هو أهلُه، وأن تَخْلِطوا الرَّغبة بالرَّهبة، وتَجمعوا الإلحافَ بالمَسألة، فإنَّ الله أَثنىِ عَلَى زكريّا وعَلَى أهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[3].

ثم اعلَموا عبادَ الله أن اللهّ قد ارتهن بحقه أنفسَكم، وأَخذ عَلَى ذلك مواثيقَكم، وعَوَّضكم بالقليل الفاني الكثيرَ الباقي، وهذا كتابُ الله فيكم لا

(١) زلقه وأزلقه إذا نحّاه عن مكانه.

(٢) زهر الآداب ٦٢/١، وانظر الأوائل للعسكري ١٦٥/١.

(٣) سورة الأنبياء الآية (٩٠).

تَفْنى عجائبُه، ولا يُطْفأ نورُه. فثِقوا بقوله، وانتصحوا كتابَه، واستبصروا به ليوم الظلمة، فإنه خَلقكم لعبادته، ووَكَل بكم الكرامَ الكاتبين، يَعلمون ما تفَعلون.

ثم اعلموا عبادَ الله أنكم تَغْدون وتَرُوحون في أجل قد غُيِّب عنكم عِلْمُه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجالُ وأنتم في عَمل الله، ولن تَستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مَهل بأعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردّكم إلى سُوء أعمالكم، فإنَّ أَقواماً جعلوا أجالَهم لغيرهم، فأَنهاكم أن تكونوا أمثالَهم.

فالوَحَى الوَحَى[١]، والنجاءَ النجاءَ، فإن وراءكم طالباً حَثيثاً مَرُّه، سريعاً سَيْرُه[٢].

تعليق:

تأمل هذه الجملة الأخيرة، فقد حوت من جميل البيان ما يسترعي النظر ويلفت الانتباه:

إذ فيها أسلوب الإغراء أولا «الوحى الوحى» وهو أسلوب مبني على الإيجاز، لأن الفعل فيه مضمر دوما، والاسم المذكور منصوب على الإغراء، والثاني ـ أي الوحى الثانية ـ مؤكد له.

ثم تأتي الجملة الثانية: «النجاء النجاء» شارحة لمقصود الأولى، فالغاية من العجلة هي النجاة، وقد انتصب الاسم فيها على الإغراء أيضاً.

أما الجملة الثالثة فهي تعليل لهذا الإغراء بالسرعة والنجاة، إنه الموت الذي يطلبكم طلبا حثيثا، ويمر بكم مرا سريعا مباغتا، وهو يؤكد سرعته

(١) الوحى: العجلة. يقولون: الوحى الوحى، والوحاء الوحاء! يعني البِدارَ البِدارَ.

(٢) العقد الفريد ١/٤٩٠.



ومباغتته بنعتين، مما يسميه النحاة بالنعت السببي «طالباً حَثيثاً مَرُّه، سريعاً سَيْرُه» فحثيثا نعت لطالبا، ومره فاعل للصفة المشبهة. وفي هذا ما فيه من الإيجاز الرائع.

٨ ـ عهده بالخلافة إلى عمر:

روى المبرد في الكامل أنه عهد عند موته بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي فيها الفاجر.

إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برَّ وعدل فذلك علمي به، ورأيي فيه، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردت، ولكل امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(١)(٢).

٩ ـ كلامه لعمر حين استخلفه عند موته:

* إني مستخلفُك مِن بعدي، ومُوصِيكَ بتقوى الله.

إنَّ للَّه عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنّهار لا يقبلهُ باللَّيل. وإنّه لا يَقْبَلُ نافلةً حتّى تُؤَدَّى الفريضة، وإنَّما ثقُلت موازينُ مَن ثقلت موازينه يومَ القيامة باتباعهم الحقَّ في الدنيا.

* وفي مجمع الأمثال: وقال عند موته لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢٢٧).

(٢) الكامل ١/١٧.

والله ما نمت فحلمت، ولا شبهت فتوهمت، وإني لعلى السبيل ما زغت، ولم آل جهداً، وإني أوصيك بتقوى الله، وأحذرك يا عمر نفسك، فإن لكل نفس شهوة إذا أعطيتها تمادت فيها ورغبت فيها[1].

١٠ ـ فِقَر من كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

* وكان أبو بكر ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إذا أُثْني عليه يقول:

اللهم أنت أَعَلَمُ بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، فاجعلْنِي خيراً مما يحْسَبُون، واغفرْ ليَ برحمتك ما لا يعلمون، ولا تؤاخِذْني بما يقولون.

* وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض خطبه:

إنكم في مَهَل، من ورائه أجل، فبادروا في مهَل آجالكم، قبل أن تنقطع آمالكم، فتردكم إلى سوء أعمالكم.

* وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلَّم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته:

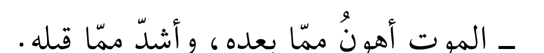
اللهم اجعل خيرَ زماني آخره، وخيرَ عملي خواتمَه، وخيرَ أيامي يومَ ألقاك.

*** وجاء في كتاب الإعجاز والإيجاز[2]:**

ـ صنائعُ المعروف تقي مصارعَ السوء.

(١) مجمع الأمثال ١/٣٩١.

(٢) الإعجاز والإيجاز ص ٣٥.

ـ الموت أهونُ ممّا بعده، وأشدّ ممّا قبله.

ـ ذل قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة. (قاله لما بلغه أن الفرس ملكت عليها بنت ابرويز).

*** وجاء في مجمع الأمثال:**

ـ إذا فاتك خير فأدركه، وإن أدركك شر فاسبقه.

ـ إن عليك من الله عيوناً تراك.

ـ احرص على الموت توهب لك الحياة.

ـ رحم الله امرأً أعان أخاه بنفسه.

ـ يا هادي الطريق جرت، فالفجر أو البحر.

ـ أطوع الناس لله أشدهم بغضاً لمعصيته.

ـ إن الله يرى من باطنك ما يرى من ظاهرك.

ـ إن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له.

ـ إياك وغيبة الجاهلية، فإن الله أبغضها وأبغض أهلها.

ـ كثير القول ينسي بعضه بعضاً، وإنما لك ما وُعِيَ عنك.

ـ أصلح نفسك يصلح لك الناس[1].

١١ ـ مشاهد من فصاحته:

مرّ رجلٌ بأبي بكر ومعه ثوبٌ، فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا عافاك الله،

(١) مجمع الأمثال ١/٣٩١.

فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد عُلِّمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله[١].

❊ وفي مجمع الأمثال:

ـ وقدم وفد من اليمن فقرأ عليهم القرآن فبكوا فقال:

هكذا كنا حتى قست القلوب.

ـ وقال له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: استخلف غيري، قال: ما حبوناك بها، إنما حبوناها بك.

ـ ومر بابنه عبد الرحمن وهو يماظُّ[٢] جاره فقال:

لا تماظِّ جارك، فإن العرف يبقى ويذهب الناس.

ـ وقال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أنكر مصالحة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل مكة:

استمسك بغَرْزِه[٣] فإنه على الحق.

ـ وقال:

أربع من كن فيه كان من خيار عباد الله: من فرح بالتائب، واستغفر للمذنب، ودعا المدبر، وأعان المحسن.

ـ وقال:

حق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلاً، وحق لميزان يوضع فيه

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦١.

(٢) ماظَّه مماظَّة ومظاظا: خاصمه وشاتمه.

(٣) الغَرز: ركاب الجمل. والمقصود من قوله استمسك بغرزه، أي اعتلق به وأمسكه، واتبع قوله وفعله، ولا تخالفه، فاستعار له الغرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره.

الباطل أن يكون خفيفاً[١].

١٢ ـ مما ينسب إليه من الشعر:

جاء في زهر الآداب:

وقال أبو بكر لبلال لما قُتل أمية بن خلف وقد كان يَسُومُه سوء العذاب بمكة فيخرجه إلى الرَّمْضاء، فيلقي عليه الصخرة العظيمة ليفارقَ دينَ الإسلام فيعصمه الله من ذلك: (الوافر).

هَنئياً زادك الرحمنُ خيراً ... فقد أدركْت، ثأرك يا بلالُ
فلا نِكْساً[٢] وُجِدْتَ ولا جباناً ... غداة تنوشُكَ الأسل الطوالُ
إذا هاب الرّجال ثبتَّ حتى ... تخلِط أنْتَ ما هابَ الرّجالُ
على مضض الكُلُوم بِمَشْرَفيٍّ ... جَلاَ أطرافَ مَتْنَيْهِ الصِّقَالُ[٣]

١٣ ـ كلمة أبي بكر في مرضه لعبد الرحمن بن عوف:

لعل خير ما أختم به نصوص أبي بكر رضي الله تعالى عنه تلك الكلمة التي رواها المبرد في الكامل ثم شرحها شرحا أوضح غامضها، وأبان وجوه البيان والبلاغة فيها، وسأوردها بتمامها كما جاءت في كتاب الكامل للمبرد:

قال أبو العباس: ومما يؤثر من حكيم الأخبار، وبارع الآداب، ما حدثنا به عن عبد الرحمن بن عوف وهو أنه قال:

---

(١) مجمع الأمثال ٣٩١/١.
(٢) النِّكْس: الرجل الضعيف. والجمع أنكاس.
(٣) زهر الآداب ٦٣/١.



دخلت يوماً على أبي بكر الصديق رحمة الله عليه في علّته التي مات فيها يوماً، فقلت له: أراك بارئاً يا خليفة رسول الله، فقال:

أما إني على ذلك لشديدُ الوجَع، ولَما لقيتُ منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ عليَّ من وجعي.

إني ولَّيتُ أمورَكم خيرَكم في نفسي، فكلكم ورِم أنفُهُ أن يكون له الأمر من دونه، والله لتتخذُنَّ نضائدَ الديباج، وستورَ الحرير، ولتألمُنَّ النومَ على الصوف الأذربي كما يألمُ أحدُكم النومَ على حَسَكِ السَّعْدان.

والذي نفسي بيده لأن يُقَدَّم أحدُكم فتُضرَبَ عنقُه في غير حدٍّ خيرٌ له من أن يخوضَ غمراتِ الدنيا.

يا هاديَ الطريق جُرْتَ، إنما هو والله الفجرُ، أو البحرُ.

فقلت: خفِّضْ عليك يا خليفةَ رسول الله، فإن هذا يَهيضُك إلى ما بك، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً، لا تأسى على شيء فاتَك من أمر الدنيا، ولقد تخلَّيْتَ بالأمر وحدَك فما رأيتَ إلا خيراً.

تعليق المبرد:

قوله: «نضائد الديباج» واحدتها نَضيدة، وهي الوسادة وما يُنْضَد من المتاع، قال الراجز:

وقرَّبَتْ خُدَّامُها الوسائدا حتى إذا ما علَّوُا النَّضائدا

سبَّحْتُ ربي قائماً و قاعداً

وقد تسمي العرب جماعة ذلك النضد، والمعنى واحد، إنما هو ما نضد

في البيت من متاع، قال النابغة: ورفَّعَتْه إلى السِّجْفينِ فالنَّضَدِ، ويقال: نَضَدْتُ المتاع إذا ضممت بعضه إلى بعض، فهذا أصله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[1]، وقال: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾[2]، ويقال: نضدت اللَّبِن على الميت.

وقوله: «على الصوف الأذربي» فهذا منسوب إلى أذربيجان، وكذلك تقول العرب، قال الشماخ:

تــذكرتُها وَهْنــاً وقــد حــالَ دونَهــا ... قــرى أذرَبيجــانَ المَسَــالِحُ والجــالِ

وقوله: «على حَسَكِ السَّعْدان»، فالسعدان نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه، ويغذوها غذاءً لايوجد في غيره، فمن أمثال العرب: «مرعى ولا كالسعدان» تفضيلاً له، قال النابغة:

الواهــبُ المئــةَ الأبكــارَ زيَّنَهــا ... سَـعْدانُ تُوضِـحَ فـي أوبارِهـا اللِّبَـدِ

ويروى في بعض الحديث «أنه يؤمر بالكافر يوم القيامة فيسحب على حسك السعدان»، والله أعلم بذلك.

قال أبو الحسن: السعدان: نبت كثير الشوك ـ كما ذكر أبو العباس ـ ولا ساق له، إنما هو منفرش على وجه الأرض، حدثنا أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني عن ابن الأعرابي، قال: قيل لرجل من أهل البادية ـ وخرج عنها: أترجع إلى البادية؟ فقال: أما ما دام السعدان مستلقياً فلا. يريد أنه لا يرجع إلى البادية أبداً، كما أن السعدان لا يزول عن الاستلقاء أبداً.

---

(١) سورة ق الآية (١٠).

(٢) سورة الواقعة الآية (٢٨ ـ ٢٩).



وقال أبو علي البصير واسمه الفضل بن جعفر، وإن لم يكن بحجة، ولكنه أجاد فذكرنا شعره هذا لجودته لا للاحتجاج به يمدح عبيد الله بن يحيى بن خاقان وآله فقال:

يــــا وزراء الســـــلطانْ   أنــــــتم وآلُ خاقــــــانْ
كـــــبعضِ مــــا روينــــا   فـــي ســـالفاتِ الأزمـــانْ
مــــــاءٌ ولا كصـــــدَّى   مرعًـــــى ولا كالسَّــــعدانْ

وهذه الأمثال ثلاثة، منها قولهم: «مرعى ولا كالسعدان»، و«فتًى ولا كمالكٍ»، و«ماء ولا كصدَّاء»، تضرب هذه الأمثال للشيء الذي فيه فضل وغيره أفضل منه، كقولهم: «ما من طامَّة إلا فوقها طامَّة»، أي ما من داهية إلا وفوقها داهية، ويقال: طما الماء وطمَّ إذا ارتفع وزاد.

ومالك الذي ذكروا هو مالك بن نويرة، أخو متمم بن نويرة.

«وصدّاء يمد، وبعضهم يقول: صُدّى، فيضم أوله ويقصر، فأما أبو العباس محمد بن يزيد، فإنه قال: لم أسمع من أصحابنا إلا صَدْءَاء يا فتى، وهو اسم لماء، معرفة، وهما همزتان بينهما ألف، والألف لا تكون إلا ساكنة، كأنك قلت: صَدْعَاع يا هذا».

وقوله: إنما هو والله الفجرُ أو البحرُ يقول: إن انتظرتَ حتى يضيءَ لكَ الفجرُ الطريقَ أبصرتَ قصدَكَ. وإن خبطتَ الظلماءَ، وركبتَ العشواءَ هجما بك على المكروه، وضرب ذلك مثلاً لغمرات الدنيا، وتحييرها أهلَها.

وقوله: «يهيضك» مأخوذ من قولهم: هِيضَ العظمُ إذا جُبِر ثم أصابه شيء يعنتُه فآذاه، كَسَرَهُ ثانيةً، أو لم يكسره، وأكثر ما يستعمل في كسره ثانية،



ويقال: عظم مَهِيض، وجَناح مَهيض في هذا المعنى، ثم يشتق لغير ذلك، وأصله ما ذكرت لك، فمن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ لما كسر يزيد بن المهلب سجنه وهرب، فكتب إليه: لو علمت أنك تبقى ما فعلت، ولكنك مسموم، ولم أكن لأضع يدي في يد ابن عاتكةَ. فقال عمر: اللهم إنه قد هاضني فهِضْهُ. فهذا معناه.

وقوله: «فكلكم وَرِمَ أنفُه»، يقول: امتلأ من ذلك غضباً، وذكر أنفه دون السائر كما بقال: فلان شامخ بأنفه، يريد رافع، وهذا يكون من الغضب كما قال الشاعر: ولا يُهاج إذا ما أنفُه ورما

أي لا يُكلَّم عند الغضب، ويقال للمائل برأسه كبرا: مُتَشاوِس، وثاني عِطْفِه، وثاني جيدِه، إنما هذا كله من الكبرياء. قال الله عز وجل: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(١)] وقال الشماخ:

نبئــت أن ربيعــاً أن رعــى إبــلاً ... يُهــدي إلــيَّ خَنــاهُ ثــانيَ الجيــدِ

وقوله: «أراك بارئاً يا خليفة رسول الله» يكون من برِئْتُ من المرض وبَرَأْتُ، كلاهما يقال: فمن قال برئت يقول: أبرأ يا فتى لا غير، ومن قال: برأت قال في المضارع: أبرَأ وأبرُؤ، يا فتى، مثل فرَغَ يفرَغُ ويفرُغ. والآية تقرأ على وجهين: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[(٢)]، وسنفرَغ: والمصدر فيهما «البُرْءُ» يا فتى[(٣)].

(١) سورة الحج الآية (٩).

(٢) سورة الرحمن الآية (٣١).

(٣) الكامل ١/١٠ ـ ١٧.



عمر بن الخطاب رضي الله عنه

فضله ومكانته:

قال محمد بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إيها يا ابن الخطاب فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك»[1].

وعن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:» إن الشيطان يفرق من عمر»[2].

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به»[3].

١ ـ نماذج من خطبه:

أ ـ خطبته في توزيع العطاء:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس: مَن أراد أن يَسْأل عن القرآن فليأت أبيَّ بن كعب، ومَن أراد أن يَسْأل عن الفرائض فَلْيأت زيدَ بن ثابت، ومَن أراد أن يَسأل عن الفِقْه فَلْيأت مُعاذ

(١) صحيح البخاري (٣٦٨٣)، ومسلم (٢٣٩٦)، اللفظ للبخاري.

(٢) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (راشدون/٧٤).

(٣) أبو داود (٢٩٦٢)، وصححه الألباني.



بن جَبَل، ومَن أراد أن يَسْأل عن المال فَلْيأتني، فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً.

إني بادئ بأزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمُعطيهنَّ، ثم المهاجرين الأوَلين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تَبوؤوا الدارَ والإيمان مِن قبلهم، ثم مَن أسرع إلى الهِجرة أسْرعَ إليه العطاء، ومَن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء. فلا يلومنَّ رجلٌ إلا مُناخ[1] راحلته.

إني قد بَقيت فيكم بعد صاحبي، فابتليتُ بكم وابتُليتم بي، وإني لن يَحْضرني من أموركم شيء فأكِله إلى غير أهل الْجَزاء والأمانة، فلئنْ أحسنوا لأحسننَّ إليهم، ولئنْ أساءُوا لأُ نكّلَنَّ بهم[2].

ب ـ خطبته في شكر النعم:

الحمد لله الذي أعزَّنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورَحمنا بنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهدانا به من الضلالة، وجَمعنا به من الشتات، وألَّف بين قلوبنا، ونَصرنا عَلَى عدوّنا، ومكّن لنا في البلاد، وجَعلنا به إخواناً مُتحابين.

فاحَمدوا الله عَلَى هذه النّعمة، واسألوه المَزيدَ فيها والشُكر عليها، فإنَّ الله قد صَدقكم الوعدَ بالنَصر عَلَى مَن خالَفكم.

وإياكم والعملَ بالمَعاصي، وكُفْر النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم يَنزعوا إلى التوبة إلا سُلبوا عزَّهم، وسُلط عليهِم عدوّهم.

أيها الناس، إنَ الله قد أعزّ دَعوة هذه الأمة وجَمع كلمتها وأظهر فَلَجها[3]

(١) المُناخ: الموضع الذي تناخ فيه الإبل.

(٢) العقد الفريد ٤/١٥٣، وانظر سير أعلام النبلاء ١/٣٩٤.

(٣) الفَلج: الظفر والفوز.



ونصَرها وشرَّفها، فاحمدوه عبادَ الله عَلَى نِعمَه، واشكروه عَلَى آلائه. جعلَنا الله وإياكم من الشاكرين[١].

ج ـ خطبته في القصاص:

أيها الناس، إنه قد أتي عَلَيَّ زمان وأنا أرى أن قوماً يقرؤون القرآن يُريدون به الله عزّ وجلّ وما عنده، فخُيِّل إليّ أن قوماً قَرَؤوه يُريدون به الناس والدنيا. ألا فأريدوا الله بأعمالكم.

ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزَّل الوَحْي وإِذ رسول الله بين أظهرنا يُنبئنا من أخباركمٍ، فقد انقطع الوَحْى، وذهب النبي، فإنما نعرفكم بالقَول.

ألا مَن رأينا منْه خيراً ظنَنا به خيراً وأحببناه عليه، ومَن رأينا منه شرّا ظنَنَا به شرّا وأبغضناه عليه. سرائركم بَينكم وبين ربكم.

ألا وإني إنما أبعث عُمّالي ليُعلِّموكم دينكم وسُننكم، ولا أبعثهم ليَضرِبوا ظهوركم ويأخذوا أموالَكم. ألا مَن رابه[٢] شيء من ذلك فَلْيرْفعه إليّ، فوالذي نفسي بيده لأقُصَّنكم[٣] منه.

فقامٍ عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيتَ إن بعثتَ عاملاً من عُمّالك فأدّب رجلاً من رعيَّتك فَضرَبه، أتقصّه منه؟ قال: نعم، والذي نفَس عُمر بيده، لأقصَّنه منه، فقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقصّ من نفسه[٤].

---

(١) العقد الفريد ٤/١٥٤.

(٢) أي مَن ساءه شيء من ذلك، أو من كره شيئا من ذلك. رابني فلان يَريبني: إذا رأيت منه ما يَريبك وتكرهه.

(٣) أقصه الحاكم يُقصه: إذا مكَّنه من أخذ القِصاص.

(٤) العقد الفريد (ج ١/ص ٤٩١).

وقد ورد الشطر الأول من هذه الخطبة في البيان والتبيين إلى قوله: «وأبغضناه عليه» ثم جاء في تمامها:

«اقْدَعُوا هذه النُّفوس عن شهواتها[١]، فإنّها طُلَعَةٌ[٢]، وإنّكم إلاّ تقدَعوها تَنزِعْ بكم إلى شر غاية».

إنّ هذا الحقَّ ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء[٣]، وتركَ الخطيئة خيرٌ من معالجة التَّوبة، ورُبَّ نظرةٍ زرعت شهوة، وشهوةِ ساعةٍ أورثَتْ حُزْناً طويلاً[٤].

د ـ خطبته عام الرمادة واستسقاؤه بالعباس:

حمد الله وأثنى عليه وصلى عَلَى نبيّه، ثم قال:

اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً. اللهم أنت الرّاعي، لا تُهمل الضالّة[٥]، ولا تدع الكَسيرة[٦] بمَضْيعة. اللهم قد ضَرَع[٧] الصغير، وَرَقّ الكبير؛ وارتفعت الشكوى، وأنت تعلم السرّ وأخْفى. اللهم أغِثْهم بغِياثك قبل أن يَقْنطوا فَيَهْلِكوا، فإنه لا ييأس من رَوْحِ اللهّ إلا القومُ الكافرون.

فما برحوا حتى علَّقوا الحِذاء، وقَلّصوا المآزر[٨]، وطَفِق الناس بالعبّاس

(١) القدْع: الكف والمنع، أي كفوها.
(٢) الطُّلَعة: الكثير التطلع إلى الشيء، الكثيرة الميل إلى هواها.
(٣) الباطل وبيء: لا تحمد عاقبته.
(٤) البيان والتبيين ١٣٨/٣.
(٥) الضالَّة: ما ضل من البهائم للذكر والأنثى.
(٦) المنكسرة.
(٧) خضع وذلَّ.
(٨) أي شمَّروها كي لا تبتل بالماء الذي غمر المكان.

يقولون: هنيئاً لك يا ساقي الْحرمين[1].

هـ ـ خطبته إذ ولي الخلافة:

صَعد المِنْبَر فحَمد اللهّ وأثنى عليه، ثم قال:

يأيها الناس، إني داعٍ فأمِّنوا.

اللهم إني غَليظ فَلَيِّني لأهل طاعتك بموافقة الحقّ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقْني الغِلْظة والشدّة على أعدائك وأهل الدَّعارة والنِّفاق، من غير ظُلم منّي لهمِ ولا اعتداء عليهم.

اللهم إني شحيح فسَخِّني في نوائب المَعروف، قَصْداً من غير سرف ولا تَبْذير ولا رياء ولا سُمعة، واجعلني أبتغي بذلك وَجْهَك والدارَ الآخرًة.

الَّلهم ارزقني خَفْض الْجَناح وَلين الجانب للمُؤمنين.

اللهم إني كثيرُ الغَفْلة والنِّسيان فألْهمني ذِكرَك على كلّ حال، وذِكرَ الموت في كلّ حين.

اللهم إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشّاط فيها والقوّة عليها بالنيّة الحسنة التي لا تكون إلا بعزّتك وتَوْفيقك.

اللهم ثَبِّتني باليقين والبرّ والتَّقوى، وذِكْر المَقام بين يديك، والْحَياء منك، وارزقني الخُشوع فيما يُرْضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وصلاح النِّيات، والحَذر من الشّبهات.

اللهم ارزقني التفكّر والتدبّر لما يتلوه لِساني من كتابك، والفَهْم له،

(١) العقد الفريد ١٥٣/٤ ـ ١٥٤.

والمَعرفة بمَعانيه، والنّظر في عجائبه، والعملَ بذلك ما بقيتُ، إنك على كلّ شيء قدير.

❊ وكان آخرً كلام عمر الذي إذا تكلم به عُرف أنه فَرغ من خُطبته:

اللهم لا تَدعني في غَمْرة[1]، ولا تأخذني على غِرّة[2]، ولا تَجْعلني من الغافلين[3].

٢ ـ قبس من رسائله:

أ ـ رسالة عمر في القضاء إلى أبي موسى الأشعري:

جاء في كتاب الكامل للمبرد:

قال أبو العباس: ومن ذلك رسالته في القضاء إلى أبي موسى الأشعري وهي التي جمع فيها جمل الأحكام، واختصرها بأجود الكلام، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً، ولا يجد محق عنها معدلا، ولا ظالم عن حدودها محيصا، وهي:

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس. سلام عليك، أما بعد،

فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحقٍّ لا نفاذَ له. آسِ بين الناس بوجهك[4]، وعدلك، ومجلسك،

(١) الغمرة: الشدة والحيرة.

(٢) الغِرَّة: الغفلة.

(٣) العقد الفريد ٤/١٥٦.

(٤) سَوِّ بينهم.

حتى لا يطمعَ شريف في حيفك[1]، ولا ييأسَ ضعيف من عدلك.

البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحلَّ حراماً، أو حرم حلالاً.

لا يمنعَنَّك قضاءٌ قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديمٌ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج[2] في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنةٍ، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدا ينتهي إليها فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك، وأجلى للعمى.

المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، ومجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً[3] في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ[4] بالبينات والإيمان.

وإياك والغَلَقَ والضَّجَرَ[5]، والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق ليعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر، فمن

---

(١) في ميلك معه لشرفه.

(٢) تردد.

(٣) متهم

(٤) دفع

(٥) ضيق الصدر، وقلة الصبر.

صحت نيته، وأقبل على نفسه كفاه الله بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس[1] بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام[2].

ب ـ رسالة أخرى إلى أبي موسى:

جاء في البيان والتبيين:

عليّ بن محمد، عنِ عمر بن مُجَاشعٍ، أنّ عُمر كتب إلى أبي موسى الأشعريّ:

أمّا بعد، فإنّ للناس نُفْرةً عن سُلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركَني وإيّاكَ عمياءُ مجهولةٌ، وضغائنُ محمولة، وأهواءٌ مُتّبَعة، ودُنْيا مُؤثَرة، فأقِمِ الحدودَ ولو ساعةً من نهار.

وإذا عَرَضَ لك أمرانِ أحدهُما للّه والآخرُ للدُّنيا، فآثِرْ نصيبَك من الآخرة على نصيبك من الدُّنيا؛ فإنّ الدنيا تَنفَدُ، والآخرةُ تَبقَى.

وكُن مِن خَشية الله على وَجَلٍ، وأخِف الفُسّاقَ واجعلهم يداً يداً، ورِجلاً رِجلاً، وإذا كانت بين القبائل نائرة[3] وتَدَاعَوْا: يالَفلانٍ يالَفلانٍ، فإنّما تلك نَجْوَى الشيْطان، فاضربْهم بالسَّيف حتى يَفِيئوا إلى أمر الله، وتكونَ دعواهم إلى الله وإلى الإمام.

وقد بلغَ أميرَ المؤمنين أنَّ ضبَّةَ تدْعُو: يالَضَبَّةَ! وإنِّي والله ما أعلمُ أنّ ضَبَّةَ

(١) أظهر للناس في خلقه خلاف نيته.

(٢) الكامل ١/٢٠.

(٣) النائرة: العداوة والشحناء والفتنة.

ساقَ الله بها خيراً قطّ، ولا مَنَع بها من سوءٍ قطّ، فإذا جاءك كتابي هذا فانهَكْهُم عقوبةً حتّى يَفْرَقُوا[1] إن لم يَفْقَهُوا، وأَلْصِقْ بغَيلانَ بن خَرَشَة من بينهم[2].

وعُدْ مَرضَى المسلمين، واشهَدْ جنائزَهم، وافتَحْ بابك، وباشرْ أمرهم بنفسِك، فإنّما أنت رجلٌ منهم، غيرَ أنّ الله جعَلك أثقلَهم حِمْلاً.

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنّه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئةٌ في لباسك ومَطعمك ومركبِك ليس للمسلمين مثلُها، فإيّاك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرّتْ بوادٍ خَصِيب، فلم يكن لها هِمَّةٌ إلاّ السِّمَن، وإنّما حتْفها في السِّمَن.

واعلم أنّ للعامل مَرَدّاً إلى الله، فإذا زاغ العاملُ زاغت رعيَّتُه، وإنّ أشقَى الناس مَن شقِيَتْ به رعيّتُه، والسلام[3].

ج ـ رسالته إلى معاوية:

حفص بن صالح الأديّ عن عامر الشَّعبي؛ قال: كتب عمر إلى معاوية:

أمّا بعد فإنِّي كتبتُ إليك بكتابٍ في القَضاء لم آلُكَ ونفسي فيه خيراً، الزَمْ خمسَ خصالٍ يسلمْ لك دينُك، وتأخُذْ فيه بأفضل حظّك:

(١) يخافوا.
(٢) كان غيلان بن خرشة سيد بني ضبة بالبصرة، كما جاء في كتاب الاشتقاق لابن دريد. والملصق هو الرجل المقيم في الحي وليس منهم بسبب، فلعله أراد أن يُسكن في أحياء ضبة من ليس منهم، والله تعالى أعلم.
(٣) البيان والتبيين ٢/٢٩٣.



إذا تقدَّم إليك خَصمان فعليك بالبّينة العادلة، أو اليمين القاطعة.

وأَدْنِ الضعيف حتّى يشتدَّ قلبُه وينبسطَ لسانه.

وتعهَّدِ الغريبَ، فإنّك إن لم تتعهّدْه ترك حقَّه، ورَجَع إلى أهله؛ وإنما ضيّع حقَّه من لم يرفُقْ به. وآسِ بينهم في لحظك وطرفك. وعليك بالصُّلح بين الناس ما لم يَستَبِنْ لك فَصل القضاء[١].

د ـ رسالته إلى ابنه:

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى ابنه عبد الله:

أمّا بعد، فإنه مَن اتَّقى اللهَ وَقَاهُ، ومن توكّل عليه كَفَاهُ، ومن شكر له زادهُ، ومنْ أقرَضهُ جَزَاهُ.

فاجْعَلِ التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نيّة له، ولا أجْرَ لمن لا خشيةَ له، ولا جديد لمن لا خلَقَ[٢] لهُ.

هـ ـ رسالته إلى شريح القاضي:

أبو يوسف، عن العَرزميّ، عمَّن حدثه عن شُرَيح، أن عمر بن الخطاب رَحِمَهُٱللَّهُ كتب إليه:

لا تُشَارَّ ولا تُمارَّ ولا تُضَارَّ[٣]، ولا تَبعْ ولا تَبْتَع في مجلس القضاء، ولا تقضِ بين اثنين وأنت غضبان[٤].

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٥٠.

(٢) ثوب خَلق: بالٍ.

(٣) جاء في اللسان: «وفلان يشارُّ فلانًا ويمارُّ ويُزارُّ، أي: يعاديه».

(٤) البيان والتبيين ٢/١٥٠.

و ـ رسالته إلى سعد:

وكتب عمرُ بن الخطاب إلى سعد أبي وقّاص:

يا سعدَ سعدَ بنيِ أُهيْب، إنّ الله إذا أحبَّ عبداً حبّبه إلى خلقه، فاعتبِرْ منزلَتَك من الله بمنزلتك من الناس، واعلَمْ أنّ ما لَكَ عند الله مثلُ ما للَّهِ عندك[1].

ز ـ رسالته إلى ساكني الأمصار:

حدّثنا عليٌّ بن محمدٍ وغيره قال: كتب عُمر بن الخطّاب إلى ساكني الأمصار:

أمَّا بعد فعلّموا أولادَكم العَوْم والفُروسةَ، وروّوهم ما سارَ من المَثَل، وحَسُن من الشِّعر[2].

والرواية في كتاب الكامل: علموا أولادكم العومَ والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا، ورووهم ما يجمُل من الشعر[3].

ح ـ رسالته إلى الأفاق:

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الآفاق أن لا يقرئ إلا صاحبُ عربية[4].

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦١.

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠.

(٣) الكامل ١/٣٤٤.

(٤) إعراب القراءات لابن خالويه١/٢٧.

ط ـ أوجز رسالة إلى أبي موسى:

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري:

«خذ الناس بالعربية، فإنها تزيد في العقل، وتثبت المُروءة».

تعليق:

هذه الكلمة من روائع ما نقل عن عمر رضي الله تعالى عنه، وهي تدل على نفاذ بصيرة، وقوة عارضة، وصواب رأي، فضلا عما تشتمل عليه من علو بيان، وفصاحة كلام، وروعة إيجاز.

إذ فيها تأسيس لقاعدة لغوية فكرية، باتت بحكم المسلمات في علم اللغة واللسانيات والفكر، وهي علاقة اللغة بالفكر والتفكير، والعقل والذكاء، هذه العلاقة الجدلية التي قطباها اللغة والفكر وكل منهما يؤثر ويتأثر، فكلما نمت اللغة وقويت نما الفكر وتطور، وكلما ضعفت وهزلت عاد الفكر واهيا هزيلا، والعكس صحيح أيضا، فالفكر السديد الصحيح يرقى باللغة ويسمو بها، والفكر الضعيف الضحل ينزل باللغة إلى الحضيض.

واللغة ليست مجرد رموز أو مواصفات فنية، بل هي أسلوب تفكير ونمط بناء وتثقيف للشخصية الإنسانية، وبقدر ما تكون اللغة دقيقة يكون الفكر دقيقاً والرأي صائباً، فالإنسان عندما يفكر لا يستطيع ذلك إلا إذا وجد مخرجاً لكل فكرة بعبارة يقولها أو يكتبها، وما لم تتحول الفكرة إلى لغة فإنها تموت، ومن هنا فإن زيادة الثروة اللغوية يؤدي إلى زيادة الثروة الفكرية، ومن هنا أيضا كان الخلل في اللغة خللاً في التفكير كما قال الفيلسوف زكي نجيب محمود: «إذا دبّ خلل في اللغة دبّ خلل في التفكير» ذلك أن العلاقة بين

اللغة والفكر علاقة جدلية أزلية فلا فكر دون لغة ولا لغة دون فكر.

هذا وإن ضعف اللغة أو قوتها معيار تقاس به ثقافة الأمم وحياتها، فالمجتمع الذي تقوى لغته ترقى ثقافته وحياته وفكره. «وكم عز أقوام بعز لغات».

والعربية تزيد على سائر اللغات أنها شعيرة من شعائر الله جل في علاه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[1] ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب، وهي إلى هذا الرباط المقدس المتين الذي يشد بعض أبنائها إلى بعض، ويصل مشرق هذه الأمة بمغربها، وحاضرها بماضيها ومستقبلها، وهي هوية الأمة.. ووعاء فكرها.. ووسيلة تواصلها.. وأداة المعرفة فيها.

واستهدافها يعطل نمو تفكير الأمة، ويلغي عقلها، ويطمس شخصيتها، ويعبث بثقافتها، ويقطع أوصالها، ويجفف ينابيعها، ويجتث جذورها ويتركها في مهب الريح، ولاسيما أنها لغة العقيدة والقيم والثقافة والحضارة والعلم والتعليم والعبادة.

وليست العربية لغة إقليمية تخص بلداً معيناً أو شعباً مخصصاً، بل هي لغة الأمة كل الأمة، ولست أعني الأمة العربية فحسب بل الأمة الإسلامية أجمع لأنها لغة القرآن الكريم.

من هنا كان لزاما على كل عربي صادق في ولائه، بل على كل مسلم ملتزم بإيمانه، أن يرعى هذه اللغة حق الرعاية، وأن يحفظها ويعنى بها حق

(١) سورة الحج الآية (٣٢).



الحفظ والعناية، يقول الإمام الزبيدي: «ولم تزل الأئمة من الصحابة الراشدين ومن تلاهم من التابعين يحضّون على تعلم العربية وحفظها والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، فبها أنزل الله كتابه المهيمن على سائر كتبه، وبها بلّغ رسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ وظائف طاعته وشرائع أمره ونهيه».

ومن تنكّب عن ذلك ففي عروبته شك، وفي إسلامه نقص، كما يصرح أستاذنا الدكتور مازن المبارك حيث يقول: «وليس مخلصا للإسلام ولا واعيا في خدمة كتاب الله من لم يدعه حبُّه وإخلاصه ووعيه إلى العناية باللغة العربية، إن العربية صوت القرآن وصورته، ولا يطعن فيها أو يفصلها عنه إلا شعوبي».

ومن هنا نفهم شطر الكلمة التي قالها عمر، أي «تزيد في العقل» أما شطرها الآخر، أي تثبت المروءة، فالمروءة كلمة جامعة لمكارم الأخلاق العربية التي جاء رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متممًا لها، وحاضًّا عليها، وأسوةً يؤتسى به فيها. والعربية بشعرها ونثرها وعيون أخبارها ودرر أمثالها، بل بنصوص قرآنها، وأحاديث أفصح من نطق بها، تهدي إلى هذه المكارم وتدل عليها، وتربي كل ناطق بها على أحسنها وأقومها. وفي هذا يقول شاعرها الحكيم أبو تمام:

ولولا خلالٌ سنَّها الشعر ما درى   بغاةُ النّدى من أين تؤتَى المكارمُ

وبعد فهل أزيدك شيئا؟ إن ما صدَّر به عمر كلامه من قوله: «خذ الناس بالعربية» يشتمل على الحل الأمثل لما نعانيه اليوم من تردٍّ في لغتنا وضعف في عربيتنا، لأن الله يزَع بالسلطان مالا يزَع بالقرآن، كما قال سيدنا عثمان، ولو أخذ أولو الأمر الناس بالعربية لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، أعني لو

أصلحوا لغة الإعلام، ولغة التدريس والتعليم، ولغة الخطابة والكتابة، وكل لغة يمتد سلطانهم إليها، لما عاش الناس في دنيا من الخطأ الشائع، والركاكة والفهاهة، ومزاحمة اللغات الأجنبية.... وما إلى ذلك.

أرأيت إلى هذا الإيجاز البديع؟! وهذا البيان الرفيع؟! إنه قبس من مدرسة النبوة.

٣ ـ طائفة من أقواله:

أ ـ خيرُ صناعات العرب أبياتٌ يقدِّمها الرّجلُ بين يدَيْ حاجَته، يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللَّئيم.

ب ـ ما كانت الدنيا همَّ رجلٍ قطّ إلا لزم قلبَهُ أربع خصال: فقرٌ لا يُدرك غناه، وهمٌّ لا ينقضي مداه، وشُغل لا يَنفدُ أُولاه، وأَمَلٌ لا يبلغ منتهاه[(١)].

ج ـ إنِّي والله ما أَدَع حَقّاً للَّه لشِكايةٍ تظهر، ولا لضَبٍّ يُحتَمل[(٢)]، ولا لمحاباةِ بَشَرٍ، وإنّك والله ما عاقبتَ مَن عصى الله فيكَ بمثل أن تُطيعَ الله فيه[(٣)].

د ـ كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.

هـ ـ اقرؤوا القرآن تُعْرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، ولن يبلغ حق ذي حقٍّ أن يُطاعَ في معصية الله، ولن يقرِّبَ مِن أجَل، ولن يُباعِدَ من رزقٍ، أن يقوم رجلٌ بحقٍّ، أو يُذكِّر بعظيم[(٤)].

---

(١) زهر الآداب ١/٧٣.

(٢) الضَّب: الغيظ والحقد، وقيل هو الضغن والعداوة.

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦١.

(٤) البيان والتبيين ٢/٧٠.

و ـ الناس طالِبان: فطالبٌ يطلب الدُّنيا فارفضوها في نَحْره، فإنّه ربَّما أدرك الذي طلب منها فهلَك بما أصاب منها، وربَّما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها، وطالبٌ يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافِسُوه.

ز ـ ما تستبْقوه من الدُّنيا تجدوه في الآخرة[1].

ح ـ «إن هذا الأمر لا يصلحه إلا لين في غير ضعف وشدة في غير عنف».

٤ ـ مشاهد من حواراته:

أ ـ سأل عمرُ بنُ الخطّاب رجلاً عن شيء فقال: الله أعلم، فقال عمر:

لقد شقينا إنْ كُنّا لا نعلم أنّ الله أعلم، إذا سُئِل أحدكم عن شيء لا يعلمُه فليقلْ: لا أدري[2].

ب ـ أعرابي يسأل عمر:

عن أبي بكرة، قال: جاء إعرابي إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

يا عمر الخير جزيت الجنة اكسُ بنياتي وأمهنَّه

أقسم بالله لتفعلنّه

فقال له عمر: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ قال: إذاً أبا حفصٍ لأَذْهَبنَّه.

قال: فإذا ذهبت يكون ماذا؟ قال:

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٤.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٦١.

يكــون عــن حــالي لتســألنَّه　　　يــوم تكــون الأعطيــات مِنَّــه
والواقــف المســؤول بينهُنَّــه　　　إمــا إلــى نــارٍ وإمــا جنَّــه

قال: فبكى عمر حتى اخضلَّت لحيته، ثم قال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لِشعره، أما والله ما أملك غيره[1].

ج ـ وقال لِعْمِرو بن العاص:

ـ يا عمرو، متى تعبَّدتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟[2].

٥ ـ فقر من قصار كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

* ما الخمر صِرْفاً بأَذْهَب لعقولِ الرجالِ من الطمع.
* لا يكن حبُّك كَلَفا، ولا بغضك تَلَفا[3].
* من كتم سرّه كان الْخِيارُ في يده[4].
* أشقى الوُلاة من شَقِيَتْ به رعيَّتُهُ.
* أعقلُ الناس أعذرُهم للناس.
* قلَّما أدْبر شيء فأقبل.
* أشكو إلى الله ضَعْفَ الأمين، وخيانةَ القوي.
* لو أن الشكر والصبر بَعِيرانِ ما باليت أيَّهما أركب.

---

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح ١/١٩٥.
(٢) ربيع الأبرار للزمخشري ٣/٣٩١.
(٣) أي لا تبالغ في الحب والكره.
(٤) زهر الآداب ١/٧٣.

* من لا يعرفُ الشرّ كان أجدر أن يقع فيه.

* إياك ومؤاخاة الأحمق، فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرّك[1].

وفي الإعجاز والإيجاز:

* اتقوا من تبغضه قلوبكم.

* لا تؤخر عمل يومك إلى غدك.

* أخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم.

* أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.

* المروءة الظاهرة في الثياب الطاهرة[2].

وفي مجمع الأمثال:

* أكثروا من العيال فإنكم لا تدرون بمن ترزقون.

* من لم يعرف الشر كان جديراً أن يقع فيه.

* غمض عن الدنيا عينك، وول عنها قلبك، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعها وعاينت سوء آثارها على أهلها، وكيف عري من كست، وجاع من أطعمت؛ ومات من أحيت.

* إياكم والقحم التي من هوى فيها أتت على نفسه أو ألمت به.

* احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، فوالله لهي أخوفهما عندي عليك أن تستدرجك وتدعك.

---

(١) البيان والتبين ٤/٩٦.

(٢) الإعجاز والإيجاز ص ٣٥.

❊ ليس لأحد عذر في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة.

❊ شرار الأمور محدثاتها، واقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة.

❊ الدنيا أمل محتوم، وأجل منتقص، وبلاغ إلى دار غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تصريح، فرحم الله امرأً فكر في أمره، ونصح لنفسه وراقب ربه، واستقال ذنبه.

❊ إذا تناجى القوم في دينهم دون العامة فإنهم في تأسيس ضلالة.

❊ إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجوف، مؤدية إلى السقم.

❊ من يئس من شيء استغنى عنه.

❊ الدين ميسم الكرام.

❊ رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي.

❊ السيد هو الجواد حين يسأل، الحليم حين يستجهل، البار بمن يعاشره.

❊ أفلح من حفظ من الطمع والغضب والهوى نفسه(١).

٦ ـ مما ينسب إليه من الشعر يوم فتح مكة:

ألـــم تـــر أن اللهَ أظهـــر دِينَـــهُ ... علـى كـل ديـنٍ قبـل ذلـك حائـدِ
وأمكنــه مــن أهــل مكــة بعــدما ... تـدَاعَوْا إلـى أمـرٍ مـن الغـيِّ فاسـدِ

(١) مجمع الأمثال ١/٣٩٢.

غـداةَ أجَـالَ الخيـلَ فـي عَرَصـاتها ... مســـوَمةً بـــين الزبيـــر وخالـــدِ

فأمسـى رسـولُ الله قـد عَـزَّ نَصْـرُهُ ... وأمْســى عــدَاه مِــنْ قتيـل وشـارِدِ

يريد الزبير بن العوام حَوَارِيّ رسولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وخالِدَ بن الوليد سيفَ الله تعالى في الأرض[1].

---

(١) زهر الآداب ١/٦٤ ـ ٦٥.



عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

فضله ومكانته:

قال أنس: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان»[1].

وعن طلحة بن عبيد الله، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لكل نبي رفيق، ورفيقي عثمان»[2].

١ ـ من لوازم خطبه:

جاء في موطأ مالك:

وحَدَّثَنِي عَنْ مَالِك عَنْ أَبِي النَّضْرِ مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ، وقَلَّ مَا يَدَعُ ذَلِكَ إِذَا خَطَبَ:

إِذَا قَامَ الْإِمَامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَاسْتَمِعُوا وَأَنْصِتُوا فَإِنَّ لِلْمُنْصِتِ الَّذِي لَا يَسْمَعُ مِنْ الْحَظِّ مِثْلَ مَا لِلْمُنْصِتِ السَّامِعِ.

فَإِذَا قَامَتْ الصَّلَاةُ فَاعْدِلُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بِالْمَنَاكِبِ فَإِنَّ اعْتِدَالَ الصُّفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ.

---

(١) الترمذي (٣٩٧٠)، وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٦٩٨)، وضعفه الألباني.

ثُمَّ لَا يُكَبِّرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ رِجَالٌ قَدْ وَكَّلَهُمْ بِتَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ فَيُخْبِرُونَهُ أَنْ قَدْ اسْتَوَتْ فَيُكَبِّرُ[1].

٢ ـ خطبة نادرة:

عن الحسن أن عثمان بن عفان خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورا لظلمة القبر.

وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرا.

وقد يكفي الحكيمَ جوامعُ الكلم، والأصمّ ينادى من مكان بعيد.

واعلموا أن من كان الله معه لم يخف شيئا، ومن كان الله عليه فمن يرجو بعده ؟![2].

٣ ـ أول خطبة له:

لما وَلي عثمانُ بن عفّان قام خطيباً، فحمِد اللهّ وأثنى عليه، وتَشهَّد، ثم أُرتج عليه، فقال:

أيها الناس، إنَّ أوّل كلّ مَركب صَعْب، وإنْ أعِش فستأتيكم الخُطب عَلَى وَجهها، وسيجعل اللهّ بعد عُسر يُسراَ.

٤ ـ رواية أخرى:

ما يَزَعُ اللهُ بالسُلْطانِ، أكثَرُ مما يزعُ بالقرآن. سيجعلُ الله بعد عُسْرٍ يسراً،

(١) الموطأ ١/١٠٤. وانظر موعظة الحبيب وتحفة الخطيب ٨٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٣٩/٢٣٧ ـ ٢٣٨، وانظر موعظة الحبيب وتحفة الخطيب ٨٥.



وبعد عِي بياناً، وأنتم إلى إمام فعَّال، أحوجُ منكم إلى إمام قَوَّال.

قاله في أول خلافته وقد صعد المنبر، وأُرْتِج عليه.

٥ ـ كلامه لما نقم الناس عليه:

قال يزيد بن عياض: لما نَقِمَ النَّاس على عثمان، خرج يتوكّأ عَلَى مروان، وهو يقول:

لكلِّ أمَّةٍ آفة، ولكلِّ نِعمة عاهَة، وإنّ آفةَ هذه الأمّة عَيّابون طعَّانون، يُظهرون لكم ما تحبُّون، ويُسِرّون ما تكرهون، طَغَامٌ[١] مثلُ النَّعام، يتبَعُون أوّلَ ناعق.

لقد نَقَموا عليَّ ما نقموه عَلَى عُمر، ولكنْ قَمَعهم عمرُ ووَقَمَهُم، والله إنّي لأَقربُ ناصراً وأعزّ نفَراً.

فَضَلَ فَضْلٌ من مالي، فما ليَ لا أفعل في الفضل ما أشاء[٢].

٦ ـ ومن كلام عثمان، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأكرم نزله، وقد تنكَّر له الناس:

إن هؤلاء النفر رَعاعٌ غَثَرةٌ[٣]، تطأطأتُ لهم تطأطأَ الدِّلاءِ[٤]، وتلدَّدتُ لهم تلدُّدَ المضطر[٥].

---

(١) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٢) البيان والتبيين ١/٣٧٧.

(٣) في الأصل: أمر هؤلاء القوم رعاع عير، وقد أثبت العبارة كما جاءت في اللسان (رعع) والرَّعاع: غوغاء الناس وسقّاطهم وأخلاطهم. والغَثَرة سفلة الناس وجهالهم.

(٤) أي خفضت لهم نفسي كما تخفض الدلاء عندما يستقى بها من البئر.

(٥) التلدُّد: التلفت يمينا وشمالا، والمراد أنه سايرهم وأكثر الاستماع إليهم.

رأيتهم ألحف إخواناً[١]، وأوهمني الباطل لهم شيطاناً. أجررتُ المَرسون رَسَنَه[٢]، وأبلغت الراتع مسعاتَه[٣].

فتفرقوا عليّ فرقاً ثلاثاً، فصامتٌ صمته أنفذ من صَولِ غيره، وشاهد أعطاني شاهده ومنعني غائبه، ومتهافِتٌ في فتنة زُيِّنَت شيَّ قلبِه.

فأنا منهم بين ألسُنٍ لِدَاد[٤]، وقلوب شداد، عذيري الله منهم[٥]. ألا ينهى عالم جاهلاً، ولا ينذر حليم سفيهاً؟

والله حسبي وحسبهم يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون[٦].

تعليق:

تدل هذه الكلمة على مقدار بلاغة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومبلغ فصاحته وعلو بيانه، وهي تشتمل على مفردات قل أن يقف عليها الباحث فيما قرأ من كلام الصحابة والآل رضوان الله عليهم، وإن تعجب فعجب أنه عندما شرح أرباب المعجمات هذه المفردات استشهدوا بكلام عثمان فيها، فقد وقفت من خلال تتبعي لغريبها في اللسان على عبارات كثيرة منها، منسوبة إلى عثمان، الأمر الذي يؤكد أنه كما أسلفت قد انفرد بها.

---

(١) الإلحاف: شدة الإلحاح في المسألة.

(٢) المرسون: الذي جعل عليه الرسن وهو الحبل الذي يقاد به البعير وغيره. وأجررته أي جعلته يجره، يريد خليته وأهملته يرعى كيف يشاء.

(٣) الرتع: الأكل والشرب رغدا في الريف. وقولهم: فلان يرتع، معناه هو مخصب لا يعدم شيئا يريده. فالمراد أنه أعطى كلا منهم ما يريده.

(٤) لداد: جمع ألَدّ، وهو الخَصِم الجَدِل الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق.

(٥) العذير: النصير.

(٦) نثر الدر في المحاضرات (٢/٤٥).

ولعل انفراده هذا إنما كان من واقع معاناته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهي صرخة من قلب مكلوم، اتسع لمخالفيه، فأعطاهم ما سألوه، ومنحهم ما أرادوا، وحباهم وسايرهم، وكلمهم وتواضع لهم، فما زادهم ذلك كله إلا غيا وتعنتا. فانطلق على سجيته يشكو أمره ويصور معاناته بكلام فصيح وأسلوب بليغ لا ينقضي منه العجب.

٧ ـ وكتب إلى علي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مَحْصُور:

أمّا بعد، فقد بَلغ السَّيْلُ الزُّبَى، وجاوز الحزامُ الطُّبْيَيْنِ(١)، وطمع فيَّ مَنْ كان لا يَدْفع عنه نفسه، ولم يعجزك كلئيم، ولم يغْلِبْك كمغَلَّب؛ فأَقبِلْ إليّ، معي كنت أو علي، على أيّ أمرَيْك أحببت:

فإن كنتُ مأكُولاً فكُنْ أنت آكِلي ... وإلاّ فأَدْرِكْني ولَمّا أُمزَّقِ

تعليقات:

أ ـ هذا المثل الذي استهل به عثمان رضي الله تعالى عنه كلمته يدل على مبلغ ما ألمَّ به من كرب وضيق، يضرب مثلاً للأمر يبلغ غايته في الشدة والصعوبة.

وقد رأيت من تمام الفائدة نقل ما جاء في كتاب الأمثال لأبي عبيد بن سلام من الكلام فيه:

وقال أبو عمرو الشيباني: من أمثالهم في منتهى الشدة قولهم: قد بلغ السيل الزبى.

(١) مثل يضرب للأمر يتفاقم أو يتجاوز الحد حتى لا يُتلافى. والزبى جمع زُبية وهي الرابية لا يعلوها الماء. والطُّبيين مثنى طُبي وهو حلَمات الضرع التي فيها اللبن للحيوانات ذوات الحوافر والسباع.

قال: وأصله الزُّبية التي تجعل للصائد، ولا تحفر إلاّ في نجوة لئلا ينالها السيل فإذا بلغ السيل دخولها فهو مجحف.

وقال الأصمعي في مثله أيضاً: قد جاوز الحزام الطبيين.

وكذلك التقى البطان والحقب، وكذلك التقت حلقتا البطان.

قال: وأصل ذلك أن الفارس النجاة من طلب يتبعه. فيبلغ من مخافته أن يضطرب حزام دابته حتى يبلغ طبييها، ولا يمكنه أن ينزل فيشده.

وقد روينا هذين المثلين عن عثمان بن عفان أنّه كتب بهما إلى علي بن أبي طالب، وكان غائبا وعثمان محصوراً «أما بعد فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين» في كلام قد ذكرناه في غريب الحديث[(١)].

ب ـ وفي قوله: ولم يعجزك كلئيم، ولم يغْلِبْك كمغَلب. اقتباس من بيت امرئ القيس الرائع:

وَإِنَّــكَ لَــم يَفخَــر عَلَيــكَ كَفــاخِرٍ   ضَعيفٍ وَلَم يَغلِبكَ مِثلُ مُغَلَّبِ[(٢)]

ج ـ وقد ورد في قوله: فأَقبِلْ إليّ، معي كنت أو علي. رواية أخرى نصها: فإذا أتاك كتابي هذا فأَقبِلْ إليّ، عليَّ كنت أو لي[(٣)].

وتدبر قوله: عليَّ كنت أو لي. ما أبلغه وأوجزه وأفصحه! وقد اشتمل على طباق الحروف بين حرفي الجر اللام وعلى، كالذي في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[(٤)]. وقد افتنَّ فيه الشعراء كما في قول مجنون ليلى:

(١) الأمثال لأبي عبيد بن سلام ص٣٤٣.

(٢) ديوان امرئ القيس ١/٧٥.

(٣) لسان العرب (زبي).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٨٦).



على أنني راضٍ بأن أحمل الهوى وأخلُـصَ منـه لا علـيَّ ولا ليـا

د ـ وأما البيت الذي تمثل به فقد قال فيه صاحب العمدة:

والممزق، واسمه شاس بن نهار، لقب بقوله لعمرو بن هند:

فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت آكلي وإلا فـأدركني ولمـا أمـزقِ

وقد تمثل بهذا البيت عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رسالة كتب بها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]. وهو ختام قصيدة له جاءت في الحماسة البصرية وقبله:

عَلَوْتُمْ مُلُوكَ الأَرْضِ بالحَزْمِ والتُّقَى وغَرْبِ نَدىً مِن غُـرَّةِ المَجْدِ يَسْتَقِي

وأَنتَ عَمُودُ المُلْكِ مَهْما تَقُلْ يُقَلْ ومَهْمـا تَضَـعْ مِـن باطـل لا يُحَقَّـقِ

فإِنْ يَجْبُنُوا تَشْجُعْ، وإِنْ يَبْخَلُوا تَجُدْ وإِنْ يَخْرُقُـوا بـالأَمْرِ تَفْصِـلْ فتَفْـرُقِ

أَحَقًّـا أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ أَنَّ ابـنَ فَرْتَنَـى علـى غَيْـرِ إِجْـرامٍ بِرِيقِـي مُشَـرِّقِي

فـإِنْ كنـتُ مَـأْكُولاً فكُـنْ أَنـتَ آكِلِـي وإِلاَّ فـأَدْرِكْنِي ولَمَّـا أُمَـزَّقِ[٢]

٨ ـ فقر من قصار كلامه:

من كتاب الكامل:

إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يزَع بالقرآن[٣].

قوله يزع أي يكفُّ، يقال: وزَع يزَع: أي كفَّ.

(١) العمدة لابن رشيق ١/٤٧.

(٢) الحماسة البصرية ١/١٢٧.

(٣) الكامل ١/٣٥٠. وقد تقدمت رواية أخرى لهذ الكلمة.

ومن الإعجاز والإيجاز:

❋ يكفيك من الحاسد أن يغتمَّ وقتَ سرورك.

❋ تاجروا الله بالصدقة تربحوا[1].

ومن مجمع الأمثال:

❋ خير العباد من عصم واعتصم بكتاب الله تعالى.

❋ ونظر إلى قبر فبكى وقال: هو أول منازل الآخرة، وآخر منازل الدنيا، فمن شُدد عليه فما بعده أشد، ومن هُون عليه فما بعده أهون.

❋ وقال يوم حصر:

لأن أقتل قبل الدماء أحب إلي من أن أقتل بعد الدماء[2].

٩. مما ينسب إليه من الشعر:

غِنَى النفسِ يُغْني النفسَ حتى يكُفَّها ... وإنْ عضَّهَا حَتى يضرَّ بها الفَقْرُ

وما عُسْرَةٌ فاصْبِرْ لها إن تَتَابَعَتْ ... بباقيةٍ إلاَّ سيتبعها يُسْرُ

(١) الإعجاز والإيجاز ص ٣٦.

(٢) مجمع الأمثال ٢/٤٥٣.



كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

يعد حديث كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه عن محنته عندما تخلف عن غزوة تبوك قطعة أدبية نادرة، روت تجربة إنسانية فريدة، كل ما فيها مؤثر، وقد سردت سردا قصصيا فنيا استوحى منها الكثير من الكتاب والأدباء، ورواها البخاري في صحيحه ومنه أثبتنا نصها.

قال البخاري: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ.

قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا.

كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ، وَاللهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ

الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ.

قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ، فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا.

فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ.

فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ[1] أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ.

---

(١) أي مطعونا في دين متهما بالنفاق.



وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ، وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا؟ وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي.

فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَادِمًا.

وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ.

فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ

حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ، لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ، فَقُمْتُ.

وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي.

ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ. فَقُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي.

وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا ـ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ[1] ـ مِنْ

(١) أي: معشر الثلاثة، وهو من أساليب الاختصاص التي يضمر فيها فعل تقديره أخص أو أعني. وإعرابه عند النحاة: اسم مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص، وما بعده صفة له. وقد ورد هذا الأسلوب في دعاء رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث يقول: اللهم اغفر لنا أيَّتُها العصابةُ.

وأسلوب الاختصاص هذا يتجاوز عند علماء البلاغة الاختصاص إلى معنى التواضع والانكسار إلى الله جل وعلا كما في قول الشاعر:

جُـدْ بعفـوٍ فـإنني ـــ أيُّهـا العبـــ ـــدُ ـــ إلـى العفـو يـا إلهـي فقيـرُ

انظر نحو العربية ٣/١٠٨ ـ ١١٠.



بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ. فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً.

فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ. وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَسَكَتَ. فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ، مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا[1].

(١) أي أوقدته بها، والشجر إيقادك في التنور.



حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ، إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ.

قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ.

فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ! قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ

النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ.

قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ.

قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ! قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟ قَالَ: لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ.

فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي، مَا

تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ. وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(1).

فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾(2) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾(3).

قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا ـ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ ـ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا، حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾(4).

وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا، وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ(5).

(1) سورة التوبة الآية (١١٧ ـ ١١٩).

(2) سورة التوبة الآية (٩٥).

(3) سورة التوبة الآية (٩٦).

(4) سورة التوبة الآية (١١٨).

(5) صحيح البخاري ٣٢٨/١٣، رقم ٤٠٦٦.



من شعراء الصحابة

لما كان هذا الكتاب مخصصا لروائع البيان عند الآل والأصحاب رأيت ألا أخليه من شعرهم، فهو ضرب من البيان، بل هو من أعذب ضروبه وأفانينه، بيد أني اقتصرت على نماذج لأكابر شعرائهم وفيها منبهة على ما وراءها.

١ ـ حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حسان بن ثابت سيد شعراء الإسلام، وشاعر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذائد عن دعوته، والمنافح عن رسالته، والهاجي لأعدائه بأمر منه وتأييد من الله وملائكته.

قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اهجهم وجبريل معك»(١). وقال في حديث آخر: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما ناضج ـ أو فاخِر ـ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وسأقتصر هنا على إيراد قصيدتين أولاهما رائعته الهمزية التي قالها يوم الفتح يهجو بها أبا سفيان بن الحارث، وثانيتهما عينيته التي يفخر فيها بقومه الأنصار.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

(٢) سنن الترمذي (٢٨٤٦).

أ ـ جاء في منتهى الطلب من أشعار العرب:

وقال حسانُ بنُ ثابتٍ بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار، وهو تيمْ الله من الخزرج بن ثعلبة العنقاء بن عمرو ومزيقياء بن عامرٍ ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول بن مازن بن الأزد. وأم حسان الفريعة بنت خنيس بن لوذان من الخزرج أيضاً، يقولها يوم فتح مكة: الوافر

عفــتْ ذاتُ الأصــابع فــالجواءُ ... إلــى عــذراءَ منزلُهــا خــلاءُ
ديــارٌ مــن بنــي الحسـحاسِ قفْـرٌ ... تَعَفَّتْهَــا الــروامِسُ والســماءُ
وكانــتْ لا يــزالُ بهــا أنــيسٌ ... خــلالَ مُرُوجِهــا نَعــمٌ وشــاءُ
فــدعْ هــذا ولكــنْ مــنْ لطيــفٍ ... يــؤرقني إذا ذهــبَ العشــاءُ
لشــعثاءَ التــي قــدْ تَيَّمَتْــهُ ... فلــيْسَ لقلبــهِ منْهــا شــفاءُ
كــأنَّ خبيــةً مــنْ بيــتٍ رأسٍ ... يكــونُ مزاجَهــا عسَــلٌ ومــاءُ
علــى أنيابهــا أوْ طعــمُ غــضٍّ ... مــنَ التفــاحِ هصــرهُ اجتنــاءُ
إذا مــا الأشــرِباتُ ذُكِــرْنَ يومــاً ... فهــنَّ لطيــبِ الــراحِ الفــداءُ
نُوَلِّيهــا الملامَــةَ إنْ ألمْنــا ... إذا مــا كــانَ مغــثٌ أو لحــاءُ
ونشــربُها فتتركنــا ملوكــاً ... وأســداً مــا ينهنهنــا اللقــاءُ
عــدمنا خيلَنــا إنْ لَــمْ تروْهــا ... تثيــرُ النقْــعَ موعــدُها كــداءُ
يبــارِينَ الأسِــنَّةَ مُصْــغِياتٍ ... علــى أكتافِهــا الأَسْــلُ الظِّمــاءُ
تظــلَّ جيادُنــا متمطــراتٍ ... يلطمُهُــنَّ بــالخمرِ النســاءُ

فإمّــــا تُعْرِضُـــوا عنــــا اعتمرنــــا ... وكـــانَ الفـــتحُ وانكشــفَ الغطــاءُ
وإلاَّ فاصـــــبرُوا لجِـــــلادَ يـــــومٍ ... يعــــينُ اللهُ فيـــــهِ مـــــن يشــــاءُ
وقـــالَ اللهُ قـــدْ يسَّـــرْتُ جنـــداً ... هـــمُ الأنصـــارُ عرضـــتها اللقـــاءُ
لنــا فـــي كـــلِّ يـــومٍ مـــنْ معـــدٍّ ... قتــــالٌ أو ســــبابٌ أو هجــــاءُ
فـــنحكم بـــالقوافِي مـــن هجانـــا ... ونضــربُ حــينَ تخــتلطُ الــدماءُ
وقـــال اللهُ قـــدْ أرْســـلْتُ عبـــداً ... يقـــولُ الحـــقَّ إنْ نفَـــعَ الـــبلاءُ
شــهدتُ بـــهِ وقـــومِي صـــدَّ قـــوهُ ... فقلـــتم مـــا نجيـــبُ ومـــا نشـــاءُ
وجبريــــــلٌ أمـــــينُ اللهِ فينــــــا ... وروحُ القـــدسِ لـــيس لـــهُ كفـــاءُ
ألا أبلـــغْ أبـــا ســـفيانَ عنِّـــي ... فأنـــتَ مجَّـــوفٌ نخـــبٌ هـــواءُ
هجـــوتَ محمـــداً فأجبـــتُ عنـــهُ ... وعنــــدَ الله فــــي ذاكَ الجــــزاءُ
أتهجُـــوهُ ولســـتَ لـــهُ بكفـــوءٍ ... فشـــــرُّكُما لخيركُمـــــا الفـــــداءُ
فمَـــن يهجُـــو رســـولَ اللهِ مـــنكمْ ... وينصـــــرُهُ ويمدحُـــــهُ ســـــواءُ
فـــإنَّ أبـــي ووالـــداهُ وعرضِـــي ... لعـــرضِ محمـــدٍ مـــنكمْ وقـــاءُ
فإمـــا تـــثقفَنَّ بنِـــي لـــؤيٍّ ... جذيمــــة إنَّ قــــتلَهُمُ شــــفاءُ
أولئـــكَ معشـــرٌ نصـــرُوا علينـــا ... فتفـــي أظفارنـــا مـــنهمْ دمـــاءُ
وحلـــفُ الحـــارثِ بـــن أبـــي ضـــرارٍ ... وحلـــفُ قريظـــةٍ منـــا بـــراءُ
لســـانِي صـــارِمٌ لا عيْـــبَ فيـــهِ ... وبحـــرِي مـــا يُكـــدِّرُهُ الـــدلاءُ[1]

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب (ص: ٢٧١ ـ ٢٧٢).



وقد روى هذه القصيدة ابن هشام في سيرته ثم قال: قالها حسان يوم الفتح ويروى: «لساني صارم لا عتب فيه». وبلغني عن الزهري أنه قال: لما رأى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النساء يلطمن الخيل بالخُمُر تبسم إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1].

تعليق:

جاء في حلية المحاضرة:

أخبرنا عبيد الله بن أحمد النحوي قال أخبرنا محمد بن الحسن بن دريد قال، أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن أبيه قال: (أنشد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسان بن ثابت قوله (الوافر):

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

حتى انتهى إلى قوله:

هجوت محمداً فاجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جزاؤك على الله عز وجل الجنة يا حسان!».

فلما انتهى إلى قوله:

فإن أبي، ووالدتي، وعرضي ... لعرض محمد منك وقاء

قال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «وقاك الله حر النار».

فلما قال:

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

(١) سيرة ابن هشام ١٠٧٥ ـ ١٠٧٧

قال من حضر: «هذا أنصف بيت قالته العرب»[1].

ب ـ وجاء في منتهى الطلب من أشعار العرب:

وقال حسان لما جاء بنو تميمٍ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشاعرهم وخطيبهم: [البسيط]

إنَّ الذوائبَ من فهرٍ وإخوتهمْ ... قدْ بينُوا سنةً للناسِ تتبعُ
يرضَى بها كلُّ من كانتْ سريرتُهُ ... تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذي شرعْوا
قومٌ إذا حاربوا ضروا عدوهمُ ... أوْ حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلكَ منهمْ غيرُ محدثةٍ ... إنَّ الخلائقَ حقاً شرُّها البدَعُ
لا يرقَعُ الناسُ ما أوهَتْ أكفهمُ ... عندَ الدفاعِ ولا يوهونَ ما رقعُوا
إنْ كانَ في الناسِ سباقونَ بعدهمُ ... فكلُّ سبقٍ لأدنَى سبقهمْ تبَعُ
ولا يضنُّونَ عنْ مولًى بفضلِهمُ ... ولا يُصيبُهمُ في مطمعٍ طمعُ
لا يجهلُونَ وإنْ حاولتَ جهلهمُ ... في فضلِ أحلامهمْ عن ذاك متسعُ
أعفةٌ ذكِرَتْ في الحيّ عفتُهمْ ... لا يطبعونَ ولا يرديهمِ الطبَعُ
كمْ من صديقٍ لهمْ نالوا كرامتهُ ... ومن عدوٍّ عليهمْ جاهدٍ خدعُوا
أعطوا نبيَّ الهدَى والبرَّ طاعتهُمْ ... فما ونَى قصرهمْ عنهُ وما نزعوا
إن قالَ سيرُوا أجدَّ السيرَ جهدهُمُ ... أو قالَ عُوجُوا علينا ساعةً ربعوا
ما زالَ سيرهمُ حتى استقادَ لهمْ ... أهلُ الصليبِ ومنَ كانتْ لهُ البيعُ

(١) حلية المحاضرة (ص: ٤٨، بترقيم الشاملة آليا).

خذْ منهمُ ما أتـوا عفـواً إذا غضـبوا ... ولا يكُن همكَ الأمرَ الـذي منعُـوا
فـإنَّ فـي حـربهمْ فـاترُكْ عـداوتهُمْ ... شراً يخاضُ عليـهِ الصابُ والسلَعُ
نَسْـمُو إذا الحـربُ نالتنـا مخالبُهـا ... إذا الزعـانِفُ مـن أظفارِهـا خشـعوا
لا فـرحٌ إنْ أصـابُوا مـن عـدوهمِ ... وإنْ أُصـيبوا فـلا خَـوْرٌ ولا جَـزَعُ
كأنهمْ في الـوغَى والمـوتُ مكتنِعٌ ... أسـدٌ ببيشـةَ فـي أرْسـاغِها فـدَعُ[١]

وقد روى هذه القصيدة ابن هشام في السيرة وفي روايته اختلافات وزيادات منها هذه الأبيات:

أكـرم بقـوم رسـولُ الله شـيعتهم ... إذا تفاوتـت الأهـواء والشـيعُ
أَهْـدَى لهـم مِـدْحَتِي قلـبٌ يـؤازره ... فيمـا أحـب لسـان حائـك صـنعُ
فـإنهم أفضـل الأحيـاء كلهـم ... إن جدَّ بالناس جدُّ القول أو شَمَعوا[٢]

❋ ❋ ❋

٢ ـ كعب بن زهير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لعل قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) هي الأشهر في دنيا العروبة والإسلام، فهي من غُرَرِ القصيد وفحل الشعر، وصاحبها شاعر ابن شاعر، ومناسبتها خطيرة جليلة، نجا فيها صاحبها في الدنيا والآخرة، فقد كان في الدنيا مهدور الدم ملاحقا، فعفا رسولنا الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، وكان في الآخرة

(١) منتهى الطلب من أشعار العرب (ص: ٢٧٨).
(٢) شَمَع يشمَع شمعًا وشُموعًا إذا لم يجدَّ. وانظر القصيدة في سيرة ابن هشام ١٢٠٥ ـ ١٢٠٦.

من المشركين الضالين فأصبح من المسلمين المقربين، بل من صحابة رسول الله ﷺ الفائزين، كيف لا وقد فاز ببردته بعد عفوه وتكرمه.

وكي يكون القارئ على ذكر من هذه المناسبة يحسن أن أوردها كما جاءت في سيرة ابن هشام:

أمر كعب بن زهير بعد الانصراف عن الطائف:

ولما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير ابن أبي سلمى إلى أخيه بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً وإن

أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض وكان كعب بن زهير قد قال:

ألا أبلغا عني بُجَيْراً رسالةً   فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا؟
فبيِّنْ لنا إن كنت لست بفاعل   على أي شيء غير ذلك دلَّكَا
على خلق لم ألف يوماً أباً له   عليه وما تُلفي عليه أباً لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف   ولا قائل إما عثرت: لعاً لكا
سقاك بها المأمون كأساً روَّية   فَأَنْهلَك المأمون منها وعَلَّكَا

قال ابن هشام: ويروي المأمور. وقوله فبين لنا: عن غير ابن إسحاق.

وأنشدني بعض أهل العلم بالشعر وحديثه:

من مبلغ عني بجيراً رسالة   فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا

شربت مع المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا
وخالفت أسباب الهدى واتبعته ... على أي شيء ويب غيرك دلكا
على خلق لم تلف أماً ولا أباً ... عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت: لعاً لكا

قال: وبعث بها إلى بجير فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها فقال رسول الله ﷺ لما سمع سقاك بها المأمون: صدق وإنه لكذوب أنا المأمون.

ولما سمع: «على خلق لم تلف أماً ولا أباً عليه» قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه. ثم قال بجير لكعب:

من مبلغ كعباً فهل لك في التي ... تلوم عليها باطلاً وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجوا إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ... ودين أبي سلمى علي محرم

قال ابن إسحاق: وإنما يقول كعب: المأمون ويقال: المأمور في قول ابن هشام لقول قريش الذي كانت تقول لرسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان في حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول.

فلما لم يجد من شيء بُدّاً قال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ، وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خرج حتى قدم

المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لي، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ﷺ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه.

فذكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟

قال رسول الله ﷺ: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه.

فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً عما كان عليه.

قال فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير.

فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

بانَت سُعادُ فَقَلبي اليَومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إِثرَها لَم يُجزَ مَكبولُ(١)

وَما سُعادُ غَداةَ البَينِ إِذ رَحَلوا ... إِلّا أَغَنُّ غَضيضُ الطَرفِ مَكحولُ(٢)

هَيفاءُ مُقبِلَةً عَجزاءُ مُدبِرَةً ... لا يُشتَكى قِصَرٌ مِنها وَلا طولُ

(١) متبول: أصيب بتَبْل وهو نوع من السقم، وقلب متبول إذا غلبه الحب وهيمه. متيم: مذلل. لم يجز: من الجزاء، أي ما أثابتني. مكبول: مكبل بالحديد.

(٢) الأغنُّ: الذي في صوته غنة. وغضيض الطرف: فاتر الطرف.

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلمٍ إِذا اِبتَسَمَت ... كَأَنَّـــهُ مُنهَـــلٌ بِـــالراحِ مَعلـــولُ[1]

شُـجَّت بِـذي شَبَمٍ مِـن مـاءِ مَحنِيَـةٍ ... صافٍ بِأَبطَحَ أَضحى وَهُوَ مَشمولُ[2]

تَجلـو الرِيـاحُ القَـذى عَنُـه وَأَفرَطَـهُ ... مِـن صَـوبِ سـارِيَةٍ بـيضٌ يَعاليـلُ[3]

يـا وَيحَهـا خُلَّـةً لَـو أَنَّهـا صَـدَقَت ... ما وَعَدَت أَو لَو انَّ النُصحَ مَقبـولُ[4]

لَكِنَّهـا خُلَّـةٌ قَـد سـيطَ مِـن دَمِهـا ... فَجـعٌ وَوَلـعٌ وَإِخـلافٌ وَتَبـديلُ[5]

فَمـا تَـدومُ عَلـى حـالٍ تَكـونُ بِهـا ... كَمـا تَلَـوَّنُ فـي أَثوابِهـا الغـولُ

وَمـا تَمَسَّـكُ بِالوَصـلِ الَّـذي زَعَمَـت ... إِلّا كَمـا تُمسِـكُ المـاءَ الغَرابيـلُ

كَانَـت مَواعيـدُ عُرقـوبٍ لَهـا مَـثَلاً ... وَمـــا مَواعيـــدُها إِلّا الأَباطيـــلُ[6]

أَرجـو وَآمُـلُ أَن يَعجَلـنَ فـي أَبَـدٍ ... وَمـا لَهُـنَّ طَـوالَ الـدَهرِ تَعجيـلُ

فَـلا يَغُرَّنْـكَ مـا مَنَّـت وَمـا وَعَـدَت ... إِنَّ الأَمـــانِيَّ وَالأَحـــلامَ تَضـــليلُ

أَمسَـــت سُـــعادُ بِـــأَرضٍ لا يُبَلِّغُهـــا ... إِلّا العِتـاقُ النَجيبـاتُ المَراسـيلُ[7]

---

(١) العوارض: الأسنان. والظَّلم: ماء الأسنان. ومنهل: من شرب أول مرة، والمعلول: من شرب مرتين.

(٢) شُجَّت بِذي شَبَمٍ: عوليت بماء بارد. والمحنية: ما انحنى من الوادي فيه رمل وحصى صغار.

(٣) أفرطه: ملأه. سارية: سحابة. واليعاليل: السيول.

(٤) خلة: يقال للذكر والأنثى.

(٥) سيط: خلط، والفجع: المصيبة. والولع: الكذب.

(٦) عرقوب: يضرب فيه المثل بالإخلاف.

(٧) النجيبات المراسيل: النوق الخفاف.

وَلَـــــن يُبَلِّغهــــا إِلّا عُــــذافِرَةٌ ... فيهـا عَلـى الأَيـنِ إِرقـالٌ وَتَبغيـلُ[1]
مِن كُـلِّ نَضّـاخَةِ الـذِفرى إِذا عَرِقَـت ... عُرضَتُها طامِسُ الأَعـلامِ مَجهـولُ[2]
رمـي الغُيـوبَ بِعَينَـي مُفـرَدٍ لَهَـقٍ ... إِذا تَوَقَّــدَتِ الحُــزّانُ وَالميــلُ[3]
ضَـــخمٌ مُقَلَّـــدُها فَعَـــمٌ مُقَيَّـــدُها ... في خَلقِها عَن بَناتِ الفَحلِ تَفضيلُ[4]
حَـرفٌ أَخوهـا أَبوهـا مِـن مُهَجَّنَـةٍ ... وَعَمُّهـا خالُهـا قَـوداءُ شِـمليلُ[5]
يَمشــي القُـرادُ عَلَيهـا ثُـمَّ يُزلِقُـهُ ... مِنهـا لَبـانٌ وَأَقـرابٌ زَهاليــلُ[6]
عَيرانَةٌ قُذِفَت في اللَحمِ عَن عُرُضٍ ... مِرفَقُها عَـن بَنـاتِ الـزورِ مَفتـولُ[7]
كَـأَنَّ مـا فـاتَ عَينَيهـا وَمَـذبَحَها ... مِن خَطمِها وَمِن اللَحيَينِ بِرطيلُ[8]
تَمُرُّ مِثلَ عَسيبِ النَخلِ ذا خُصَلٍ ... فـي غـارِزٍ لَـم تَخَوَّنَـهُ الأَحاليـلُ[9]

(١) عذافرة: شديدة غليظة. والأين: الإعياء. والإرقال: العدو مع نفض الرأس. والتبغيل: مشي فيه سعة.
(٢) نَضّاخَةِ الذِفرى: فوارة الرائحة. والعرضة: الهمة، أي همتها خرق ما توارى وبعد.
(٣) الغيوب: ما غاب عنك. والمفرد: الثور الوحشي الذي تأخر عن القطيع. واللهق: الشديد البياض. والحزَّان: ما غلظ من الأرض. والميل: مدُّ النظر. يقول: إن هذه الناقة لا تكسل في الهاجرة.
(٤) ضخم مقلدها: غليظة الرقبة. فعم مقيدها: ممتلئ رسغها. وبنات الفحل أي النوق، أي لها فضل عليهن في عظم خلقها.
(٥) يريد أنها كريمة الطرفين من أبيها وأمها.
(٦) اللبان: الصدر. والقراب: الخواصر. والزهاليل المُلْس.
(٧) عيرانة: تشبه العير أي حمار الوحش. عن عرض: أي رُميت باللحم في أعراضها يريد أنها سمينة. وبنات الزور: الأضلع المقدمات من الزَّور.
(٨) البِرطيل: واحد البراطيل وهي حجارة إلى الطول ما هي.
(٩) الغارز: ضرعها، والغراز: انقطاع اللبن. لم تخونه الأحاليل: أي لم تُنَقَّصه مجاري اللبن.



قَنـواءُ فـي حُرَّتَيهـا لِلبَصـيرِ بِهـا ... عِتقٌ مُبينٌ وَفي الخَدَّينِ تَسهيلُ[1]
تَخدي عَلى يَسَراتٍ وَهيَ لاحِقَةٌ ... ذَوابِلٌ وَقعُهُنَّ الأَرضَ تَحليلُ[2]
سُمرُ العُجاياتِ يَترُكنَ الحَصى زِيَماً ... لَم يَقِهِنَّ رُؤوسَ الأُكُمِ تَنعيلُ[3]
يَوماً يَظَلُّ بِهِ الحَرباءُ مُصطَخِماً ... كَأَنَّ ضاحِيَهُ بِالنارِ مَملولُ[4]
كَأَنَّ أَوبَ ذِراعَيها وَقَد عَرِقَت ... وَقَد تَلَفَّعَ بِالقورِ العَساقيلُ[5]
وَقالَ لِلقَومِ حاديهِم وَقَد جَعَلَت ... وُرقُ الجَنادِبِ يَركُضنَ الحَصى قيلوا[6]
شَدَّ النهارِ ذِراعا عَيطَلٍ نَصَفٍ ... قامت فَجاوَبَها نُكدٌ مَثاكيلُ[7]
نَوّاحَةٌ رَخوَةُ الضَّبْعَين لَيسَ لَها ... لَمّا نَعى بِكرَها الناعونَ مَعقولُ[8]
تَفري اللِبانَ بِكَفَّيها وَمِدرَعِها ... مُشَقَّقٌ عَن تَراقيها رَعابيلُ[9]

---

(١) قنواء: في أنفها كالحدَب. وحُرَّتاها: أذناها. والعتق الكرم.

(٢) تخدي: تسير مسرعة، واليسرات: القوائم الخفاف، ولاحقة: ضامرة. تحليل: مثل تحلة اليمين.

(٣) العجايات: عَصَب باطن اليدين. زشيَما: متفرقة. لَم يَقِهِنَّ رُؤوسَ الأُكُمِ تَنعيلُ: لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ.

(٤) مصطخما: أي منتصبا من الحر. وضاحيه: ما ظهر منه للشمس. والمملول: من المَلَّة وهي النار.

(٥) أوب: رَجع. تلفَّع: تلحَّف. القور: جمع قارة، وهو جبل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضا. العساقيل: السراب.

(٦) الورق: الطوال. وهذا في أشد ما يكون من الهاجرة.

(٧) شد النهار: ارتفاع النهار وهو ظرف. شبه هذه الناقة في سرعة تقليبها يديها بيدي هذه المرأة التي مات حميمها.

(٨) رخوة الضبعين: يريد أنها شديدة الحركة واللدم أي لطم الوجه. والمعقول: العقل.

(٩) تفري اللبان: تشق الثياب عن الصدر. والرعابيل: المتخرقة المتمزقة.

يَسعى الوُشاةُ بِجَنبَيها وَقَولُهُم إِنَّكَ يا بنَ أَبي سُلمى لَمَقتولُ[1]

وَقالَ كُلُّ خَليلٍ كُنتُ آمُلُهُ لا أُلفِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ[2]

فَقُلتُ خَلّوا طَريقي لا أَبا لَكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَحمَنُ مَفعولُ

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ

أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني وَالعَفُوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ

مَهلاً هَداكَ الَّذي أَعطاكَ نافِلَةَ ال قُرآنِ فيها مَواعيظٌ وَتَفصيلُ

لا تَأَخُذَني بِأَقوالِ الوُشاةِ وَلَم أُذِنب وَلَو كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ

لَقَد أَقومُ مَقاماً لَو يَقومُ بِهِ أَرى وَأَسمَعُ ما لَو يَسمَعُ الفيلُ[3]

لَظَلَّ يُرعَدُ إِلّا أَن يَكونَ لَهُ مِنَ الرَسولِ بِإِذنِ اللهِ تَنويلُ[4]

ما زِلتُ أَقتَطِعُ البَيداءَ مُدَّرِعاً جُنحَ الظَلامِ وَثَوبُ اللَيلِ مَسبولُ

حَتّى وَضَعتُ يَميني لا أُنازِعُهُ في كَفِّ ذي نَقِماتٍ قيلُهُ القيلُ[5]

لَذاكَ أَهَيبُ عِندي إِذ أُكَلِّمُهُ وَقيلَ إِنَّكَ مَسبورٌ وَمَسؤولُ

مِن ضَيغَمٍ مِن ضِراءَ الأُسدِ مُخْدَرَهُ بِبَطنِ عَثَّرَ غيلٌ دونَهُ غيلُ[6]

---

(١) أي أن الوشاة يسعون إليها ـ أي إلى سعاد ـ بوعيد رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٢) لا ألفينك: أي لا أكون معك في شيء.

(٣) لما كان الفيل عنده ضخما توهم أنه أسمع الأشياء.

(٤) التنويل: العطاء، زهز هنا العفو والأمان.

(٥) أي قوله الصادق.

(٦) مخدره: مكانه. عثر: موضع. والغيل: الشجر الملتف. يقول رسول الله أهيب عندي من الأسد.

يَغـدو فَـيَلحَمُ ضِـرغامَين عَيشُـهُما ... لَحـمٌ مِـنَ القَـومِ مَعفـورٌ خَراذيـلُ[1]
إذا يُســاوِرُ قِرنــاً لا يَحِــلُّ لَــهُ ... أَن يَتـرُكَ القِـرنَ إِلّا وَهُـوَ مَفلـولُ
مِنـهُ تَظَـلُّ حَميـرُ الـوَحشِ ضـامِرَةً ... وَلا تُمَشّـي بِواديـهِ الأَراجيـلُ[2]
وَلا يَـزالُ بِواديـهِ أَخـو ثِقَـةٍ ... مُطَـرَّحُ البَـزِّ وَالدَرسـانِ مَـأكولُ[3]
إِنَّ الرَسـولَ لَسَـيفٌ يُستَضـاءُ بِـهِ ... مُهَنَّـدٌ مِـن سُـيوفِ اللهِ مَسـلولُ
في عُصبَةٍ مِـن قُـرَيشٍ قـالَ قـائِلُهُم ... بِـبَطنِ مَكَّـةَ لَمّـا أَسـلَموا زولـوا[4]
زَالـوا فَمـا زالَ أَنكـاسٌ وَلا كُشُـفٌ ... عِنـدَ اللِقـاءِ وَلا ميـلٌ مَعازيـلُ[5]
شُـمُّ العَـرانينِ أَبطـالٌ لَبوسُـهُمُ ... مِن نَسجِ داوُدَ في الهَيجا سَرابيلُ[6]
بـيضٌ سَـوابِغُ قَـد شُـكَّت لَهـا حَلَـقٌ ... كَأَنَّهـا حَلَـقُ القَفعـاءِ مَجـدولُ[7]
يَمشون مَشيَ الجِمالِ الزُهرِ يَعصِمُهُم ... ضَـربٌ إِذا عَـرَّدَ السـودُ التَنابيـلُ[8]

---

(١) يلحم ضرغامين: يطعمهما اللحم. ومعفور خراذيل: مطروح في التراب مقطَّع.

(٢) الضامزة: الساكنة. والأراجيل: الرجَّالة.

(٣) الدرسان: ثياب خُلْقان.

(٤) زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة، يعني الهجرة.

(٥) النِّكْس: الضعيف. والكشف: الذين ينهزمون و لا يثبتون وأصله من الأكشف الذي لا ترس معه في الحرب. والميل: جمع أميل: وهو الذي لا يثبت على السرج. والمعازيل: جمع معزال وهو من لا سلاح معه.

(٦) العرانين: الأنوف. والشمم: حدة في طرف الأنف مع تشمير.

(٧) بيض سوابغ: يعني الدروع أنها سابغة ضافية. وشكت: أدخل بعض حَلَقها في بعض وسُمِّرت، فشبه حلقها بنَور القفعاء وهي شجرة لها ورق مثل حلق الدروع.

(٨) يعصمهم: يمنعهم. والزهر: البيض.

لا يَفرَحــونَ إِذا نالَــت رِمــاحُهُمُ قَومــاً وَلَيســوا مَجازيعــاً إِذا نيلــوا[١]

لا يَقَــعُ الطَّعــنُ إِلّا فــي نُحــورِهِمُ ما إِنْ لَهُم عَن حِياضِ المَوتِ تَهليلُ[٢]

قال ابن هشام: قال كعب هذه القصيدة بعد قدومه على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ[٣].

٣ ـ كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ:

جاء في سيرة ابن هشام: قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ:

أَلَا أَبْلِــغْ قُرَيْشًــا أَنَّ سَــلْعًا وَمَا بَيْنَ الْعُرَيْضِ إلَى الصِّمَادِ[٤]

نَوَاضِــحُ فِــي الْحُــرُوبِ مُــدَرَّبَاتٌ وَخَــوْصٌ ثُقِّبَــتْ مِــنْ عَهْــدِ عَــادِ[٥]

رَوَاكِــدُ يَزْخَــرُ الْمُــرَّارُ فِيهَــا فَلَيْسَــتْ بِالْجِمَــامِ وَلَا الثِّمَــادِ[٦]

كَــأَنَّ الْغَــابَ وَالْبَــرْدِيَّ فِيهَــا أَجَــشُّ إذَا تَبَقَّــعَ لِلْحَصَــادِ[٧]

---

(١) أي هم صبر إذا نكبوا.

(٢) أي يواجهون القتال، ولا يفرون ولا ينهزمون فيقع الطعن في أدبارهم.

(٣) سيرة ابن هشام ١١٤٩ ـ ١١٥٣. والشرح مقتبس بتصرف من شرح ديوان كعب بن زهير برواية الإمام أبي سعيد السكري ٦ ـ ٢٥. وانظر القصيدة بتمامها أيضا في منتهى الطلب في أشعار العرب لابن ميمون ٢٧ ـ ٣٢.

(٤) سلع: جبل بسوق الْمَدِينَة. والعريض: وَاد بِالْمَدِينَةِ. والصماد (بِالْفَتْح وَالْكَسْر): جبل.

(٥) يعْنى بالنواضح: حدائق نخل تسقى بالنضح. والخوص: الْآبَار الضيقة. وثقبت: حفرت.

(٦) رواكد: ثَابِتَة دائمة. ويزخر: يَعْلُو ويرتفع. والمرار: نهر. والجمام جمع جمة، وَهِي الْبِئْر الْكَثِيرَة المَاء. الثماد: المَاء الْقَلِيل.

(٧) الغاب: الشّجر الملتف. والبردي: نَبَات ينْبت فِي البرك تصنع مِنْهُ الْحصْر الْغِلَاظ. وأجش عالى الصَّوْت. وتبقع: صَارَت فِيهِ بقع صفر.

وَلَـــمْ نَجْعَـــلْ تِجَارَتَنَـــا اشْـــتِرَاءَ ... الْحَمِيـــرِ لِأَرْضِ دَوْسٍ أَوْ مُـــرَادِ[1]

بِـــلَادٌ لَـــمْ تُثَـــرْ إِلَّا لِكَيْمَـــا ... نُجَالِـــدُ إِنْ نَشِـــطْتُمْ لِلْجِـــلَادِ[2]

أَثَرْنَـــا سِـــكَّةَ الْأَنْبَـــاطِ فِيهَـــا ... فَلَـــمْ تَـــرَ مِثْلَهَـــا جَلَهَـــاتِ وَادِ[3]

قَصَـــرْنَا كُـــلَّ ذِي حُضْـــرٍ وَطَـــوْلٍ ... عَلَـــى الْغَايَـــاتِ مُقْتَـــدِرٍ جَـــوَادِ[4]

أَجِيبُونَـــا إِلَـــى مَـــا نَجْتَـــدِيكُمْ ... مِـــنْ الْقَـــوْلِ الْمُبَـــيَّنِ وَالسَّـــدَادِ[5]

إِلَّا فَاصْـــبِرُوا لِجِـــلَادِ يَـــوْمٍ ... لَكُـــمْ مِنَّـــا إِلَـــى شَـــطْرِ الْمَـــذَادِ[6]

نُصَـــبِّحُكُمْ بِكُـــلِّ أَخِـــي حُـــرُوبٍ ... وَكُـــلِّ مُطَهَّـــمٍ سَـــلِسِ الْقِيَـــادِ

وَكُـــلِّ طِمِـــرَّةٍ خَفِـــقٌ حَشَـــاهَا ... تَـــدِفُّ دَفِيـــفَ صَـــفْرَاءِ الْجَـــرَادِ[7]

وَكُـــلِّ مُقَلَّـــصِ الْآرَابِ نَهْـــدٍ ... تَمِيمِ الْخَلْـقِ مِـنْ أُخُـرٍ وَهَـادِي[8]

---

(١) دوس وَمُرَاد: قبيلتان من الْيمن.

(٢) لم تثر: لم تحرث.

(٣) السِّكَّة: النّخل الْمُصْطَفّ، والأنباط: قوم من الْعَجم. أَي حرثناها وغرسناها كَمَا تفعل الأنباط فِي أمصارها لَا تخَاف عَلَيْهَا كيد كائد. وجلهات الْوَادي: مَا استقبلك مِنْهُ إِذا نظرت إِلَيْهِ من الْجَانِب الآخر، الْوَاحِد: جلهة.

(٤) الْحَضَر: الجرى. وَيُرِيد «بِذِي الْحَضَر»: الْخَيل.

(٥) نجتديكم: نطلب.

(٦) الشّطْر: النَّاحِيَة وَالْقَصْد. والمذاد: مَوضِع بِالْمَدِينَةِ حَيْثُ حفر الخَنْدَق.

(٧) يُقَال: دف الطَّائِر: إِذا حرك جناحيه ليطير. صفراء الْجَرَاد: الخيفانة مِنْهَا، وَهِي الَّتِي أَلْقَت سرأها، أَي بيضها، وَهِي أخف طيرانا.

(٨) المقلص: المنشمر الشَّديد، والآراب: قطع اللَّحْم، الْوَاحِدَة: أربة (بِضَم الْهمزَة). والنهد: الغليظ. وَالْهَادِي: الْعُنُق. يُرِيد أَنه تَامّ الْخلق من مقدمه ومؤخره.

خُيُــولٌ لَا تُضَــاعُ إذَا أُضِــيعَتْ ... خُيُولُ النَّاسِ فِي السَّنَةِ الْجَمَادِ[1]

يُنَــازِعْنَ الْأَعِنَّــةَ مُصْــغِيَاتٍ ... إذَا نَـادَى إلَـى الْفَـزَعِ الْمُنَـادِي[2]

إذَا قَالَـتْ لَنَـا النُّـذُرُ اسْـتَعِدُّوا ... تَوَكَّلْنَــا عَلَـــى رَبِّ الْعِبَــادِ

وَقُلْنَــا لَــنْ يُفَــرِّجَ مَــا لَقِينَــا ... سِوَى ضَرْبُ الْقَـوَانِسِ وَالْجِهَادِ[3]

فَلَــمْ تَــرَ عُصْــبَةً فِــيمَنْ لَقِينَــا ... مِـنْ الْأَقْـوَامِ مِـنْ قَـارٍ وَبَـادِي[4]

أَشَـــدَّ بَسَــالَةً مِنَّــا إذَا مَــا ... أَرَدْنَــاهُ وَأَلْــيَنَ فِــي الْــوِدَادِ

إذَا مَــا نَحْــنُ أَشْــرَجْنَا عَلَيْهَــا ... جِيَادَ الْجُدْلِ فِي الْأُرَبِ الشِّدَادِ[5]

قَــذَفْنَا فِــي السَّــوَابِغِ كُــلَّ صَــقْرٍ ... كَــرِيمٍ غَيْــرِ مُعْتَلِــثِ الزِّنَــادِ[6]

أَشَـــمَّ كَأَنَّـــهُ أَسَـــدٌ عَبُـــوسٌ ... غَـدَاةَ بَـدَا بِبَطْنِ الْجَـزَعِ غَـادِي[7]

يُغَشِّــي هَامَــةَ الْبَطَــلِ الْمُــذَكَّى ... صَبِيَّ السَّـيْفِ مُسْتَرْخِي النِّجَـادِ[8]

لِنُظْهِــرَ دِينَــكَ اللهــمّ إنَّــا ... بِكَفِّـكَ فَاهْـدِنَا سُـبُلَ الرَّشَـادِ[9]

(١) السّنة الجماد: سنة الْقَحْط.

(٢) مصغيات: مستمعات.

(٣) القوانس: أعالى بيض الْحَدِيد.

(٤) الْقَارِي: من كَانَ من أهل الْقرى. والبادي: من كَانَ من أهل الْبَادِيَة.

(٥) أشرجنا: ربطنا. الجدل: جمع جدلاء، وَهِي الدرْع المحكمة النسج. والأرب: جمع أربة، وَهِي الْعقْدَة الشَّدِيدَة.

(٦) السوابغ: الدروع الْكَامِلَة. واعتلث الرجل زندا: أَخذه من شجر لَا يدرى أيوري أم لَا. يصفه بِحسن الاستعداد للحرب.

(٧) الْجزع: جَانب الْوَادي وَمَا انعطف مِنْهُ.

(٨) المذكَّى: الّذي بلغ الْغَايَة فِي الْقُوَّة. وَصبي السَّيْف: وَسطه. والنجاد: حمائل السَّيْف.

(٩) سيرة ابن هشام ت السقا (٢/٢٦٣ ـ ٢٦٦).

شذرات من كلمات الأصحاب

معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

١ ـ نماذج من خطبه:

أ ـ خطبة لمعاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

حمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال:

أما بعد، أيها الناس، إنا قدِمْنا عليكم، وإنما قَدِمنا على صَدِيق مُستبشر، أو على عدوٍّ مُستتر، وناسٍ بين ذلك يَنْظرون ويَنْتظرون، فإنْ أُعْطوا منها رَضُوا، وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخُطون.

ولستُ واسعاً كُلّ الناس، فإن كانت مَحْمَدة فلا بدّ من مَذمَّة، فلوْمًا هوناً[1]، إذا ذُكِرَ غُفِر، وإياكم والتي إن أُخْفِيت أَوْبقت. وإن ذُكِرَت أَوْثَقَت، ثم نزل[2].

ب ـ خطبة ثانية لمعاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

صَعِد مِنْبر المَدينة. فحمد اللهّ وأثنى عليه، ثم قال:

---

(١) أي فليكن لوم أحدكم هينا لا غلظة فيه.

(٢) العقد الفريد ١٧١/٤.

يا أهل المدينة، إنّي لست أُحِب أن تكونوا خَلْقاً كَخَلْق العِراق، يَعيبون الشيء وهم فيه، كلّ امرئ منهم شِيعةُ نَفْسه، فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم.

وإنَّ معروف زماننا هذا مُنكَر زمان مَضى، ومُنْكَرَ زماننا معروفُ زمان لم يأت، ولو قد أتى، فالرَّتْق خَيْرٌ من الفَتْق، وفي كلِّ بلاغ، ولا مُقام على الرزيّة[١].

ج ـ خطبته قبيل وفاته:

لما مرض معاويةُ مَرَضَ وفاته قال لمولى له: مَن بالباب؟ قال: نفر من قُريشَ يتباشرون بموتك. قال: ويحك لمَ؟ فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يَسُوءهم.

وأذِن للناس فَدَخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوْجز، ثم قال:

أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دَهْر عنود[٢]، وزمن شديد، يُعدّ فيه المُحْسن مُسِيئاً، ويزداد الظالم فيه عُتواً، لا نَنْتفع بما عَلِمنا، ولا نسأل عما جَهِلنا، ولا نتخوّف قارعة حتى تَحُلّ بنا.

فالناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمْنعه مِن الفساد في الأرض إلا مهانة نَفْسه، وكلال[٣] حدِّه، ونَضِيض وَفْرِه[٤].

ومنهم المُصْلِت لسَيْفه، المُجْلِب برَجِلِهِ، المُعْلن بشرِّه، وقد أَشْرَط نفسَه،

---

(١) العقد الفريد ٤/١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) صعب

(٣) كلَّ السيف إذا لم يقطع.

(٤) النضيض: الماء القليل. يريد أنه غير قادر على الفساد والإفساد لضعفه.



وأوْبق دِينَه[١]، لحُطام يَنْتهزه، أو مِقْنب[٢] يَقوده، أو مِنْبر يَفْرعه. وليس المَتْجران تراهما لنفسك ثمناً، وبمالكَ عند الله عِوَضاً!

ومنهم من يَطْلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامَن من شَخْصه، وقارب من خَطْوه. وشمَر عن ثَوْبه، وزَخْرَف نَفْسه بِالأمانة، واتّخذ سِتْر الله ذَرِيعة إلى المَعْصية.

ومنهم مَن أَقعده عن طلب المُلْك ضآلة نفسه، وانقطاع سَبَبِه، فَقَصَّرَت به الحال عن حاله، فتحلَّى باسم القَناعة، وتزيّا بلباس الزَّهادة، وليس من ذلك في مَرَاح ولا مَغْدى.

وبِقي رجالٌ أغضّ أبصارَهم ذِكْرُ المرْجع، وأراق دُموعَهم خوفُ المَضْجَع، فهم بين شريد بادٍ، وبين خائف مُنْقمع، وساكت مَكْعوم[٣]، وداعٍ مُخلص، ومُوجع ثَكْلان، قد أخْمَلتهم التقيّة، وشَملتهم الذلة، فهم في بحر أجَاج[٤]، أفواهُهم ضامرة، وقلوبهم قَرِحَة، قد وُعظوا حتى مَلّوا، وقهروا حتى ذَلّوا، وقتُلوا حتى قلّوا.

فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القَرَظ[٥]، وقُرادة الحَلَم[٦]؛ واتَّعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتّعِظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمةَ، فقد

---

(١) أوبق: أهلك.

(٢) المِقنَب: جماعة الخيل والفرسان.

(٣) المكعوم: الذي شُدَّ فوه. كعم البعير يكعَمُه فهو مكعوم وكعيم: شدَّ فاه.

(٤) بحر أجَاج: شديد الملوحة.

(٥) القرَظ: نوع من الشجر ينبت بالقيعان.

(٦) القُراد: دوَيبَّة تعض الإبل وتعلق بالجلد، والحَلَم: أن يفسد الإهاب ويقع فيه دود فيتثقب.

رَفَضت مَن كان أشفقَ بها منكم[1].

٢ ـ مشاهد من فصاحته وبلاغته:

أ ـ قال معاوية بن أبي سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَفْضَلُ ما أُعْطِيَ الرجلُ العَقْلُ والحلمُ، فإذا ذُكِّر ذَكَر، وإذا أساء استغفر، وإذا وَعَد أنجز.

ب ـ وصف معاويةُ الوليدَ بن عُتْبة فقال:

إنه لبعيد الغَوْر، ساكن الفَوْر[2]، وإنه العُودُ من لِحَائه[3]، والولد من آبائه، والله إنه لنبات أصل لا يُخلَف، ونجلُ فَحْل لا يُقرَف[4].

ج ـ ومرض معاويةُ مرضاً شديداً فأرْجَف به مَصقلة بن هُبيرةَ وساعَده قَوْمٌ على ذلك، ثم تماثل وهم في إرجافهم، فحمل زياد مَصقلة إلى معاوية وكتب إليه: إنه يَجْمَعُ مُرَّاقاً من العرَّاق فيُرْجِفُون بأمير المؤمنين، وقد حملتُه إليه ليَرَى رأيه فيه.

فقدم مَصْقَلة وجلس معاويةُ للناس؛ فلمَا دخل عليه قال: ادْنُ مني فَدَنا منه، فأخذَهُ بيده فجذَبه فسقط مَصْقَلة، فقال معاوية: [مجزوء الكامل]

---

(١) العقد الفريد ٤/١٧٧.

(٢) فار الشيء فورا وفورانا: جاش. وفارت القدر: غلت.

(٣) في الأصل: وإن العود من لحائه. ولم أرها تستقيم مع تمام العبارة. والعود: خشبة كل شجرة، دق أو غلظ. وهو من عود صدق أو سوء، على المثل، كقولهم من شجرة صالحة.

(٤) المُقْرِف: الذي دانى الهجنة من الفرس وغيره الذي أمه عربية وأبوه ليس كذلك، لأن الإقراف إنما هو من قبل الفحل، والهجنة من قبل الأم.

أبقـى الحـوادثُ مـن خليـــلك مِثْلَ جَنْدَلـةِ[1] المـرَاجِمْ
صُـــلباً إذا خَـــار الرجـــالُ أبـلَّ[2] ممتنِـعَ الشـكائمْ[3]
قــد رامنـــي الأعــداء قبـــلَك فامتَنَعْتُ عـن المظالمْ

قال مصقلة: يا أمير المؤمنين، قد أبقى الله منكَ ما هو أعظَمُ من ذلك بطشاً وحِلماً راجحاً وكلاً ومرعًى لأوليائك، وسُمَاً ناقعاً لأعدائك، كانت الجاهلية فكان أبوك سيّدَ المشركين، وأصبح الناس مسلمين؛ وأنت أميرُ المؤمنين، وقام.

فوصله معاوية، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة. فقيل له: كيف تَرَكتَ معاوية؟ فقال: زعمتم أنه لما به، والله لقد غمزني غمزة كاد يَحْطِمُني، وجذَبَني جَذْبَة كاد يكسر عُضْواً مني!

د ـ ودخل الأحنفُ بن قيس على معاوية وافداً لأهلِ البصرة، ودخل معه النَمر بن قُطْبة، وعلى النمر عباءة قَطَوَانية، وعلى الأحنف مِدرَعَةُ صوف وشَملة، فلمَا مثلا بين يدي معاوية اقتحمَتْهُمَا عينُه؛ فقال النمر:

يا أميرَ المؤمنين، إنَّ العباءة لا تكلَمك، وإنما يكلمك مَنْ فيها!

فأومأ إليه فجلس، ثم أقبل على الأحنف، فقال: ثم مَه؟ فقال:

يا أمير المؤمنين، أهلُ البصرة عدد يسير، وعَظْمٌ كسير، مع تتابع من

(١) مفرد جندل وهو الحجارة. وفي التهذيب: الجندل صخرة مثل رأس الإنسان.
(٢) الأبلُّ: الشديد الخصومة الجَدِل.
(٣) الشكائم جمع شكيمة: وهي في الأصل اللجام، إلا أنها أصبحت تستعمل للأنفة والانتصار من الظلم، يقال فلان شديد الشكيمة: إذا كان شديد النفس أنِفًا أبيا لا ينقاد.

المُحُول[1]، واتصالٍ من الذُّحول[2]، فالمكْثِرُ فيها قد أطرق، والمُقلُّ قد أمْلَق، وبلغ منه المخنق؛ فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ، ويَجْبُرَ الكسير، ويسهل العسير، ويَصْفَح عن الذُّحول، ويُدَاوِي المُحول، ويأمر بالعَطَاء؛ ليكشف البَلاَء، ويُزِيل اللأواء[3]. وإنَ السيدَ من يعمُّ ولا يخص، ومَنْ يدعو الجَفَلَى، ولا يَدْعُو النَقَرَى[4]، إنْ أحْسِنَ إليه شكر، وإنْ أسِيءَ إليه غَفَرَ، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عِمَاداً يَدْفعُ عنها المُلمّات، ويكشفُ عنهم المعضلات.

فقال له معاوية: ها هنا يا أبا بحر ثم تلا: «لَتَعْرِفَنَّهُمْ في لَحْنِ القَوْل»[5].

هـ ـ ومن جميل المحاورات ما رواه المدائني، قال:

وَفَدَ أهل العِراق على معاوية، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومعهم زيادٌ، وفيهم الأحنف، فقال زياد: يا أميرَ المؤمنين، أَشْخَصَتْ إليك أقْوَاماً الرغبةُ، وأقعد عنكَ آخرين العُذْرُ، فقد جعلَ الله تعالى في سَعَة فضلك ما يُجْبَرُ به المتخلّف، ويكافأُ به الشاخص.

فقال معاوية: مرحباً بكم يا معشر العرب، أما والله لئن فَرَّقَتْ بينكم الدعوة، لقد جمعتكم الرَحِم؛ إن الله اختاركم من الناس ليختارَنا منكم، ثم حفظ عليكم نَسَبَكُمْ بأن تخيَّر لكم بلاداً تجتاز عليها المنازل، حتى صفَّاكم من الأُمم كما تُصَفَّى الفضةُ البيضاء من خَبَثِهَا؛ فصونوا أخلاقكم، ولا تُدنسُوا

(١) جمع محل: وهو الشدة والقحط.

(٢) جمع ذَحْل: وهو الثأر.

(٣) الشدة.

(٤) الجفَلى: الدعوة العامة. والنَّقَرى الخاصة التي يدعى إليها أناس بأعيانهم، قال طرفة:
نَحْنُ في المَشْتاةِ نَدْعُو الجَفَلى... لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

(٥) زهر الآداب وثمر الألباب ـ (ج ١/ص ٢٠).

أنسابَكم وأعراضَكم، فإن الحسنَ منكم أحسَنُ لِقُرْبكم منه، والقبيح منكم أقبح لبعدكم عنه.

فقال الأحنف: والله يا أمير المؤمنين، ما نَعْدَم منكم قائلاً جزيلاً، ورأياً أصيلاً، ووعداً جميلاً؛ وإن أخاك زياداً لمتبعٌ آثارَك فينا، فنستمتع الله بالأمير والمأمور، فإنكم كما قال زُهَيْر، فإنه ألقى على المدَّاحين فضول القول: [الطويل]

وما يكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ ... وتُغْرسُ إلاَ في مَنَابِتِهَا النَخْلُ؟

وهذان البيتان لزهير بن أبي سلمى المزني في قصيدة يقول فيها:

وفيهِمْ مقامَات حِسَانٌ وُجُوهُهَا ... وَأَنْدِيَةٌ يَنتابُهَا الْقَوْلُ والْفِعْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِم ... وعندَ المُقلِّينَ السَّمَاحَةُ والْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْم لِكَيْ يُدْرِكُوهُم ... فلم يفعلوا ولم يُلِيمُوا ولم يَأْلُوا

قال بعضُ أهل العلم بالمعاني: أعْجِبْ بقوله: ولم يألوا؛ لأنه لما ذكر السعي بعدهم، والتخلّف عن بلوغ مساعيهم، جاز أن يتوهّم السامع أن ذلك لتقصير الطالبين في طلبهم؛ فأخبر أنهم لم يألوا، وأنهم كانوا غيرَ مقصرين وأنهم ـ مع الاجتهاد ـ في المتأخرين؛ ثم لم يَرْضَ بأن يجعل مجدَهُم طارفاً فيهم، ولا جديداً لديهم، حتى جعله إرْثاً عن الآباء، يتوارَثَهُ سائرُ الأبناء، ثم لم يَرْضَ أن يكون في الآباء حتى جعله موروثاً عن آبائهم، وهذا لو تكلفه متكلّف في المنثور دون الموزون لما كان له هذا الاقتدار مع هذا الاختصار.

وذُكِرَ أن عمرَ بن الخطاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن من أشعر شعرائكم زُهَيراً،



كان لا يُعاظل بين الكلام، ولا يتبع حُوشيهُ، ولا يمدح الرجلَ إلا بما يكون في الرجال.

وأخذ معنى قولِ زُهَير: سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم، طُرَيْحُ بن إسماعيل الثَّقَفي، فقال لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي السفاح: [المنسرح]

قَدْ طَلَبَ النـاسُ مـا بلغْـتَ ولَـم   يَـأْلُوا فمـا قَـارَبوا وقَـدْ جَهِـدُوا
فهـم مُلـوك مـا لـم يَـرَوْكَ، فـإن   لاحَ لهـمْ مِنْـكَ بـارقٌ خَمَـدُوا
تعـروهُمُ رِعْـدَةٌ لـديكَ كمـا   قُرْقِـفَ تحـت الدجُنَـة الصَـرِدُ
لا خـوفَ ظُلـم ولا قِلَـى خُلُـق   لكـن جـلالاً كَسَـاكَهُ الصَّـمدُ
مـا يُبقـك اللهُ للأنـام فَمـا   يفقـدْ مـن العـالمين مفتقـدُ

وقال معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المروءةُ: احتمال الجريرة.، وإصلاحُ أمر العشيرة؛ والنبلُ: الحلم عند الغضب، والعفوُ عند المقدرة[1].

۞ فِقَر من كلامه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

١. ما رأيتُ تبذيراً قطُ إلاَّ وإلى جَنْبِه حق مُضَيَّع.
٢. أنْقَصُ الناسِ عَقْلاً مَنْ ظَلَم مَنْ هُو دُونَهُ.
٣. أولى الناس بالعَفْوِ أقدرُهم على العقوبة.
٤. التسلُط على المماليك مِنْ لُؤْمِ المقدرة وسوء المملكة.
٥. صلاحُ ما في يدك أسْلَم من طلب ما في أيدي الناس.
٦. غَضَبِي على مَنْ أمْلِك، وما غضبِي على مَنْ لا أَمْلِك؟[2].

(١) زهر الآداب وثمر الألباب ٢١/١.
(٢) زهر الآداب وثمر الألباب ٢١/١.

عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

صحابي جليل شهد بصدق حديثه رسولنا الكريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ قال: «وما حدّثكم ابن أم عبد فصدَّقوه»[1] وفيما يأتي طرف من كلامه:

١ ـ خطبة له:

أصدَقُ الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة التَّقوى، وخير المِلل مِلّة إبراهيم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحسن السّنَن سنّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشرُّ الأمور مُحْدَثاتها، وخير الأمور عزائمها.

ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألهى، نفسٌ تنْجِيها خيرٌ من إمارة لا تُحْصِيها؛ خيرُ الغِنى غِنى النّفس.

خَيرُ ما أُلقِيَ في القلب اليقين، الخَمر جِمَاعُ الآثام[2]، الناس حِبَالةُ[3] الشَّيطان، الشبابُ شُعبة من الجنون، حبُّ الكفاية مِفتاح المَعْجَزة[4].

من الناس من لا يأتي الجماعة إلاّ دَبْراً[5]، ولا يذكر الله إلاّ نَزْراً، أعظَمُ

---

(١) المستدرك (٤٤٥٣).

(٢) جِماع الشيء: مجمعه ومظنته. والآثام: جمع إثم.

(٣) الحِبالة: التي يصاد بها، والجمع حبائل

(٤) المَعجزة: بالفتح: مصدر ميمي من عجز. وأورد محقق البيان شرحا لهذه العبارة نصه: «يريد الكفاية من العبادة: أن يستغني الإنسان بالقليل منها عن الكثير فيؤدي ذلك إلى العجز».

(٥) أي آخر وقتها.

الخطايا اللسان الكَذوب، سِباب المؤمِن فسق، وقتاله كفر، وأكل لَحمِه معصية.

من يَتألَّ على الله يُكْذِبْه[١]، ومن يَغفر يُغفَر له.

مكتوبٌ في ديوان المحسنين: مَن عفا عُفي عنه، الشقي من شَقي في بطن أمه، السَّعيد مَن وُعِظ بغيره، الأمور بعواقبها، مِلاك الأمر خواتمه.

أحسن الهَدْي هَدْيُ الأنبياء، أقبح الضَّلالة الضلالةُ بعدَ الهدَى، أشرف الموتِ الشهادة، مَن يعرِف البلاءَ يصبْر عليه، من لا يعرف البلاء ينكره[٢].

٢ ـ أقوال في القرآن وحملته من حلية الأولياء:

أ ـ ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرَفَ بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً حليماً عليماً سكيناً.

وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافياً، ولا غافلاً، ولا صخاباً، ولا صياحاً، ولا حديداً.

ب ـ إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء.

(١) أي من حكم عليه وحلف، كقوله: والله ليدخلن الله فلانا النار، وينجحن الله سعي فلان.
(٢) البيان والتبيين ٢/٥٦.

وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة.

ج ـ إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

د ـ ما دمت في صلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يقرع باب الملك يفتح له.

هـ ـ ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم الخشية(١).

٣ ـ وصفه لصحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

* أولئك أصحاب محمد، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرَّها قلوبا، وأعمقَها علما، وأقلَّها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على إِثْرِهم، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم(٢).

٤ ـ ومن قصار كلامه:

* حَدِّث النّاسَ ما حَدَجُوك بأبصارهم(٣)، وأَذِنُوا لك بأسماعِهم، ولحظوك بأبصارهم، وإذا رأيت منهم فترةً فأَمْسِكْ(٤).

* العلم أكثر من أن يحصى فخذوا من كل شيء أحسنه.

---

(١) حلية الأولياء ١/٦٧.

(٢) رواه رزين وأبو نعيم. نقلا عن كتاب قبس من القرآن الكريم للشيخ كريم راجح.

(٣) ما حدَجوكَ بأبصارِهم، أي ما أقْبَلوا عليك ورمَقوك.

(٤) البيان والتبيين ١/١٠٤.

* ليس شيءٌ أحقَّ بطول سجن من لسان.

* إذا قرأت آل حاميم صرتُ في روضاتٍ أتأنق فيهنَّ أي يعجبنني.

* إنّ طُول الصّلاةِ وقِصرَ الخُطْبة مَئِنَّةٌ من فِقه الرّجُل.

* مَئِنَّة كقولك: مَخلقةٌ ومَجدَرة ومَحْراة، قال الأصمعيّ: مَئِنَّة: علامة.

* عليكم بالعلم؛ فإنّ أحدكم لا يدري متى يُخْتلُّ إليه[١].

* القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة[٢].

ومن كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما نقل الميداني في مجمعه:

* ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب.

* من كان كلامه لا يوافق فعله فإنما يوبخ نفسه.

* كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل.

* جدد القلوب خلقان الثياب.

* الدنيا كلها غموم، فما كان منها في سرور فهو ربح[٣].

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٨٣.

(٢) الكامل ٢/٨٤٩. وقد تقدمت هذه الكلمة منسوبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

(٣) مجمع الأمثال ١/٣٩٠.



أبو الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١ ـ مقالات في كلمات:

أ ـ لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود في جوف الليل، ومجالسة قوم ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

ب ـ إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلّم، ومن يتحرّ[١] الخير يُعْطَه، ومن يتوقَّ الشرَّ يوقَه[٢].

ج ـ السؤدد اصطناع العشيرة واحتمال الجريرة، والشرف كف الأذى وبذل الندى، والغنى قلة التمني، والفقر شره النفس[٣].

د ـ اتقوا واحذروا الناس، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه[٤].

هـ ـ أبغَضُ النَّاسِ إليَّ أَنْ أظلِمَه مَنْ لا يستعين عليّ بأحد إلاّ بالله[٥].

و ـ مِن هوان الدُّنيا على الله أنّه لا يعُصَى إلاّ فيها، ولا يُنال ما عنده إلَّا بتركها[٦].

(١) التَّحرِّي: القَصْد والاجتهاد في الطلب، والعَزْم على تَخْصِيص الشيء بالفعل والقول.
(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ـ (ج ٢/ص ١٧٥).
(٣) مجمع الأمثال ١/٣٩٠.
(٤) ربيع الأبرار ـ (ج ١/ص ٦٣)
(٥) البيان والتبيين ١/٢٦٢.
(٦) نفسه.

ز ـ كان الناس ورقا لا شوك فيه، وهم اليوم شوك لا ورق فيه[١].

ح ـ لا يُحرز[٢] المؤمنَ من شرار الناس إلا قبرُه[٣].

٢ ـ مشاهد من فصاحته:

أ ـ دخل أبو الدَّرداء على رجل يعوده، فقال له:

كيف تجدُك؟ فقال: أفرَقُ من الموت، قال: فممّن أصبت الخيرَ كلَّه؟ قال: من الله، قال: فلِمَ تفرَقُ ممَّن لم تصب الخير كلَّه إلاّ منه؟[٤].

ب ـ قال رجل لأبي الدرداء: فلان يقرئك السلام، فقال: هدية حسنة، ومحمل خفيف[٥].

ج ـ أضحكني ثلاثٌ وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمِّلُ الدُّنيا والموتُ يطلبه، وغافلٌ ولا يُغْفَل عنه، وضاحكٌ مِلءَ فيه ولا يدري أساخطٌ ربُّه أم راضٍ، وأبكاني هولُ المطَّلَع، وانقطاعُ العَمَل، وموقفي بين يدَي الله لا يُدْرَى أيأمرُ بي إلى الجنَّة أم إلى النار[٦].

د ـ لا يغرنكم ظَرْفُ الرجل وفصاحته وإن كان مع ذلك قائم الليل صائم النهار إذا رأيتم فيه ثلاث خصال، العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٢٧.

(٢) أي لا يحفظه

(٣) البيان والتبيين ٣/١٥٧.

(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٠.

(٥) المنتخب من ربيع الأبرار ٢٧١.

(٦) البيان والتبيين ٣/١٥١.

يجد على الناس فيما يأتي مثله، فإن ذلك من علامة الجاهل.

هـ ـ مالي أَرى علماءَكم يذهبون وجُهَّالَكم لا يتعلمون[(١)].

و ـ أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب، واحذر أن تظلم من لا ناصر له إلا الله[(٢)].

ز ـ نعم صومعة المؤمن منزل يكفُّ فيه نفسَه وبصره وفرجَه، وإياكم والجلوسَ في هذه الأسواق، فإنها تُلغي وتُلهي[(٣)].

ح ـ إني لأستجمُّ نفسي بشيء من الباطل ليكون أقوى لها على الحقِّ[(٤)].

٣ ـ دعاؤه:

كان من دُعاء أبي الدَّرداء:

اللهمَّ أَمِتعْنا بخيارِنا، وأعِنّا على شِرارنا، واجعلنا خياراً كلَّنا، وإذا ذهب الصالحون فلا تُبْقِنا[(٥)].



(١) البيان والتبيين ١/٢٥٧.
(٢) البيان والتبيين ٢/١٩٥، و٣/١٤١.
(٣) البيان والتبيين ٣/١٣٢.
(٤) الكامل ٢/٨٤٩.
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٨٢.





ملحق مهم

ذكرت في هذا الملحق اثنين من كبار التابعين، حفظ لنا التاريخ كلمات لهم مازالت تنير لنا الطريق، وتهدينا إلى سواء السبيل، وهي تدل على قدم راسخة في دنيا البلاغة والفصاحة والبيان، فضلا عما فيها من الموعظة الحسنة والحكمة البالغة.

عُمر بن عبد العزيز

١ ـ توقيعات:

تمهيد لغوي[1]:

جاء في اللسان: «والتوقيع في الكتاب: إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه، وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني للأول. قال الأزهري: توقيع الكتاب المكتوب أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ويحذف الفضول، وهو مأخوذ من توقيع الدَّبَر ظهر البعير، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكّده ويوجبه»[2].

وضرب الزبيدي في تاجه بعض الأمثلة للتوقيع فقال: «كما إذا رفعت إلى السلطان أو الوالي شكاة فكتب تحت الكتاب أو على ظهره: ينظر في أمر هذا، ويستوفى لهذا حقه. ورفع إلى جعفر بن يحيى كتاب يشتكى فيه بعامل

(١) من أفانين الأدب ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) لسان العرب: (وقع).

فكتب على ظهره: يا هذا، قد قلَّ شاكروك، وكثر شاكوك، فإما عدلت، وإلا اعتزلت. ورفع إلى الصاحب بن عباد كتاب فيه أن إنساناً هلك، وترك يتيماً، وأموالاً جليلة لا تصلح لليتيم، وقصد الكاتب إغراء الصاحب بأخذها، فوقّع الصاحب فيه: الهالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واليتيم أصلحه الله، والمال أثمره الله، والساعي لعنه الله»[1].

على أن من أطرف التوقيعات التي قرأتها توقيعا كتبه الخليفة العباسي الناصر (٦٢٢ هـ) في ورقة كتبها إليه خادم له اسمه يُمْن يتعتّب، نصه: «بمن يمنٌّ يُمن، ثمن يُمن ثمن ثمن»[2].

ويقال إن الخادم أعاد الجواب وقد كتب فيه: «يمنٌّ يمنٌ بِمن ثمَّن يُمن ثُمنَ ثُمن»[3].

وقد نظم بعضهم هذا في بيت جعله أرباب التعمية (الشفرة) من الأبيات التي يُعَمَّى بها للمعاياة أي للمعاناة والإجهاد في طلب الحل:

بِمِـــنْ يَمُـــنُّ يُمْـــنُ بِمَـــنْ ... ثَمَـــنُ يُمْـــنٍ ثُمْـــنُ ثُمُـــنْ[4]

وفيما يأتي بعض توقيعات عمر بن عبد العزيز:

أ ـ كتب إلى عديّ بن أرطأة:

غرني منك مجالستك القراء، وعمامتك السوداء، فلما بلوناك، وجدناك على خلاف ما أملناك، قاتلكم الله أما تمشون بين القبور؟

(١) تاج العروس: (وقع).

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٢/٢٠٠، والوافي بالوفيات ٦/٣١٥.

(٣) الوافي بالوفيات٦/٣١٥.

(٤) علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب٢/٢٨٧، ٢٢٥.

ب ـ وكتب إلى أمير العراق:

«أما بعد فقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت».

ج ـ ومن ذلك قوله لأحد ولاته:

«إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك».

د ـ وسئل عمرُ بن عبد العزيز عن قَتَلة عثمان وخاذِليه وناصرِيه فقال: تِلك دماءٌ كفَّ الله يدي عنها، فأنا لا أحبُّ أن أغمِسَ لساني فيها[١].

٢ ـ مقالات في كلمات:

أ ـ ما قُرِن شيء إلى شيء أَفضلُ من حِلْم إلى علم، ومن عَفْو إلى قُدرة[٢].

ب ـ ثلاثٌ من كنَّ فيه فقد كمُل: من لم يخرجه غضبه عن طاعة الله، ولم يستنزلْهُ رضاه إلى معصية الله، وإذا قدر عفا وكفَّ[٣].

ج ـ ما عدمت من الأحمق فلن تعدم خلتين، سرعة الجواب، وكثرة الالتفاتات.

د ـ ما الجزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ لا تكن ممن يلعن إبليس في العلانية ويواليه في السر[٤].

هـ ـ من يزرع خيراً يوشك أن يحصد غبطة. ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة.

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٣٠.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٥٨.

(٣) الكامل في اللغة والادب ١/١٥١.

(٤) زهر الآداب وثمر الألباب ١/٢٣.



و ـ وقال له رجل جزاك الله عن الإسلام خيراً، فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً.

ز ـ وأتي برجل كان واجداً عليه فأمر بضربه ثم قال: لولا أني غضبان عليك لضربتك، ثم خلى سبيله.

٤ ـ مشهد عظيم:

ذكر بعض الرواة أنه لما استخلف عمر بن عبد العزيز رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَدِمَ عليه وفود أهل كل بلد، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز فاشرأبَّ منهم غلام للكلام فقال عمر: يا غلام ليتكلم من هو أسنُّ منك.

فقال الغلام: يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا منح اللهُ عبدَه لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسن لكان هاهنا من هو أحق بمجلسك منك.

فقال عمر: صدقت تكلم، فهذا السحر الحلال.

فقال: يا أمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لا وفد المرزِئة «الاستجداء وطلب النوال» ولم تُقْدِمنا إليك رغبةٌ ولا رهبةٌ لأنا قد أمنّا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا.

فسأل عمر عن سن الغلام فقيل: عشر سنين.



الحسن البصري[1]

١ ـ موعظة بالغة:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يقول:

«أما بعد يا أمير المؤمنين: فإن الدنيا دار ظَعْنٍ[2] وانتقال، وليست بدار إقامة على حال، وإنما أُنِزل إليها آدمُ عقوبةً، فاحذرها فإن الراغب فيها تارك، والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرّض لها.

إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق، وجدها تُذِلُّ من أعزَّها، وتفرِّق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه.

فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحَهُ، يحتمي قليلا، مخافةَ ما يكره طويلا.

---

(١) قال مصطفى صادق الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما برح أهل البيت رضوان الله عليهم يتوارثون بلاغة هي فوق بلاغة الناس، إلى أن انقضت السلائق العربية، وذلك فضل لا يدفعه من هذه الأمة أحد، وإنما هي ذرية بعضها من بعض. وقد نص العلماء على أن سبب فصاحة الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وكان يعد من الفصاحة وخلوص اللغة كذي الرمة ـ أن سبب ذلك من إرضاع أم سلمة زوج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إياه، وكانت أرضعته، فكيف بمن وشجت عروقُه، وكان من تلك الغاية مذهبه وطريقُه» تاريخ آداب العرب ٢/٣٤١.

(٢) ارتحال وسفر.

الصبر على لَأْوائِها[1] أيسرُ من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتَّر بزينتها، فإنها غدّارة ختّالة[2] خدّاعة، قد تعرضت بآمالها، وتزينت لخطّابها، فهي كالعروس، العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة[3] وهي ـ والذي بعث محمداً بالحق ـ لأزواجها قاتلة، فاتّق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين، أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هلك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لاعقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار.

والدنيا وايم الله يا أمير المؤمنين حُلْمٌ والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج منها تنجُ من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالُكَ ناجياً

(١) شدتها.

(٢) خداعة.

(٣) من الوَلَه بالتحريك: وهو ذهاب العقل من شدة الوجد.

ولما وصل كتابه إلى عمر بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده...»[١].

٢ ـ خطبة نكاح:

كان الحسن يقول في خُطبة النكاح، بعد حَمْدِ الله والثناء عليه:

أمّا بعدُ فإنَّ الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنْقطعة، والأنسابَ المتفرقة، وجعل ذلك في سنّةٍ من دينه، ومِنهاج واضحٍ من أمره، وقد خطب إليكم فلانٌ، وعليه من الله نِعمة[٢].

٣ ـ رسالة موجزة:

وكتَبَ الحسن إلى عمرَ بنِ عبد العزيز:

أَمّا بعد فكأنَّكَ بالدُّنيا لم تكُنْ، وكأنّك بالآخرة لم تَزَل[٣].

٤ ـ تذكرة:

قال رجلٌ للحسن: إني أكره الموت، فقال:

ذاك أنّك أخّرت مالَكَ، ولو قدَّمته لسرَّك أن تَلْحَق به[٤].

٥ ـ تأثير:

وقال الحسنُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وسمِع رجلاً يَعِظ، فلم تقع موعظتُه بموضعٍ مِن قلبه، ولم يرِقَّ عندها، فقال له:

(١) جمهرة خطب العرب ٤٩٨/٢.

(٢) البيان والتبيين ١٠٠/٢.

(٣) البيان والتبيين ٧٠/٢. و ١٣٨/٣ ـ ١٣٩.

(٤) البيان والتبيين ٢٦٤/١.

يا هذا، إنّ بقلبك لَشَرّاً أو بقلبي[١].

٦ ـ بلاغ

«إن من يُخوِّفُك حتى تلقى الأمنَ، أشفقُ عليك ممن يؤمِّنك حتى تلقى الخوف»[٢].

٧ ـ شهادة:

قال الحسن البصري عندما رأى حلقة أبي عمرو بن العلاء.

(لا إله إلا الله، كادت العلماء أن تكون أرباباً، كل عزٍّ لم يؤكد بعلم فإلى ذلٍّ يؤول)[٣].

٨ ـ نصيحة:

قال الحسن في كلام له لحبيب بن مسلمة الفهري: ولعمري لئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك.

وقال:

إن خير ما بذلت من مالك ما وقيت به عرضَك، وإن في ابتغاء الخير اتقاءَ الشر.

٩ ـ عون وعفو:

قال الحسن: نعم الله أكثر من أن تشكر إلا ما أعان عليه، وذنوب ابن آدم أكثر من أن يسلم منها إلا ما عفا الله عنه.

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٤.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ٢٠

(٣) غاية النهاية ١/٢٩١.

۞ لقاء الحسن البصري والفرزدق في جنازة:

والتقى الحسن والفرزدق في جنازة، فقال الفرزدق للحسن: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟

قال: وما يقولون؟

قال: يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خيرُ الناس وشرُّ الناس!

فقال الحسن: كلا، لستُ بخيرهم، ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال: شهادةَ أن لا إله إلا الله مذ ستين سنةً، وخمسَ نجائبَ لا يُدْرَكْنَ ـ يعني الصلوات الخمس ـ.

فيزعم بعض التميمية أن الفرزدق رُئِي في النوم، فقيل له: ما صنع بك ربُّك؟ فقال: غفر لي. فقيل له: بأيِّ شيء؟ فقال: بالكلمة التي نازعَنيها الحسنُ[١].

۞ مقالات في كلمات:

حادثوا[٢] هذه القلوب، فإنها سريعة الدُّثور، واقدعوا[٣] هذه الأنفس، فإنها طُلَعَةٌ[٤]، وإنكم إلاّ تنزعوها تنزع بكم إلى شرّ غاية[٥].

❊ ألا تستحيون من طول ما لا تستحيون منه.

---

(١) الكامل ١/١٥٤.

(٢) حادثوا: مَثَل، ومعناه: اجلوا واشحذوا، تقول العرب: حادث فلان سيفه: إذا جلاه وشحذه.

(٣) اقدعوا: امنعوا.

(٤) طُلَعَة: كثيرة التشوُّف.

(٥) الكامل ١/٢٧٢. وقد تقدمت هذه الكلمة في خطبة لعمر بن الخطاب ﷺ.

* إن أمرأ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت.

* أنتم تستبطئون المطر. وأنا أستبطئ الحجر.

* ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت وغفلتهم عنه.

* قيل له: من شر الناس؟ قال: الذي يرى أنه خيرهم.

* حدث بحديث فقال له رجل: عمن؟ قال له: وما تصنع بعمن؟ أما أنت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته[١].

تم الكتاب صباح يوم الأحد ٢٣ جمادى الأولى ١٤٣٣هـ

الموافق ٢٠١٢/٤/١٥ والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

---

(١) مجمع الأمثال ٢/٤٥٦.





ثبت بأهم المراجع

❋ **القرآن الكريم**.

❋ **كتب السنة النبوية**.

❋ **الإعجاز والإيجاز**، للثعالبي، تحقيق أبراهيم صالح، دار البشائر، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

❋ **أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (٢٧٩هـ) تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م.

❋ **بدائع البدائه**، علي بن ظافر بن حسين الأزدي الخزرجي، أبو الحسن جمال الدين (٦١٣هـ) طبعة: مصر سنة ١٨٦١ م.

❋ **البيان والتبيين**، للجاحظ، تحقيق أ. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط. السابعة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

❋ **تاج العروس**، **للزبيدي**، تحقيق ثلة من الباحثين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م.

❋ **تاريخ آداب العرب**، للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثانية، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

* **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية بيروت ـ لبنان.

* **الحماسة البصرية**، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (٦٥٩هـ) تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب ـ بيروت.

* **خطب مختارة**، اختيار وكالة شؤون المطبوعات والنشر بوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤٢٣هـ.

* **زهر الآداب**، للحصري القيرواني، تحقيق د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

* **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين الذهبي (٧٤٨هـ) تحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط وأصحابه، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* **السيرة النبوية**، لابن هشام (٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥ م.

* **شرح ديوان كعب بن زهير برواية الإمام أبي سعيد السكري**، دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

❊ **العقد الفريد**، لابن عبد ربه، شرحه وضبطه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت.

❊ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه**، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (٤٦٣ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

❊ **عيون الأخبار**، لابن قتيبة، تحقي د. عبد الحكيم راضي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣م.

❊ **قبس من القرآن الكريم**، للشيخ كريم راجح. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

❊ **الكامل في اللغة والأدب**، للمبرد، تحقيق د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. الثانية، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

❊ **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط. السادسة، ٢٠٠٨م.

❊ **مجمع الأمثال**، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (٥١٨هـ) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة ـ بيروت، لبنان.

❊ **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

❊ **ملامح من بيان العربية وجمالها**، د. محمد حسان الطيان، إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف ـ الكويت ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

❊ **من أفانين الأدب**، د. محمد حسان الطيان، المركز العالمي للوسطية، الكويت١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

❊ **منتهى الطلب من أشعار العرب**، لابن ميمون، تحقيق ثلة من الباحثين بإشراف أ. د. حسن نصار، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٩٩م.